محمد زفزاف

رواية

الأفعى والبحر

رؤية R

الأفعى والبحر

روايـــة



للنشر والتوزيع

2013

عنوان الكتاب : **قبور في الماء (رواية)**

اسم الكاتب : **محمد زفزاف**

المدير المسؤول : **رضا عوض**

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة : 012/3529628

6 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين

تقاطع ش شريف مع رشدي

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : 25754123 (202) +

هاتف : 23953150 (202) +

الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**

جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**

الطبعة الأولى : 2013

رقم الإيداع : 2012/21985

الترقيم الدولي : 978-977-499-079-3

الأفعى والبحر

روايـــــــــة

محمد زفزاف



للنشر والتوزيع

2013



إلى: أ. صامد

1

كان سليمان قد وصل المدينة الصغيرة التي توجد قرب البحر أول أمس. وبما أن الحرارة شديدة وقوية في الدار البيضاء، فقد أثر ذلك عليه وجعله عصبيًا لا يطيق العالم من حوله. لذلك نصحه أبوه بأن يذهب إلى هناك، حيث البحر على الأقل يستطيع أن يعطي الشعور بالانشراح وعفوية الحياة وبساطتها. وقال له بأنه سيجد في انتظاره خالته حليمة، وسيرتاح من هذا الضجيج الذي حوله، ولن يرى أناسًا لا يرغب في رؤيتهم يطلون عليه كل وقت بسحناتهم القبيحة والفضولية. وقد استطاع أبوه أن يوفر له على الأقل ثلاثة بيوت هي ثمرة عمله وجهده الشاق كسائق في الشركة الوطنية

للنقل. مرت أربعون سنة ولم يكن سليمان يشبه أختيه في شيء. فقد كانتا عاديتين إلى حد بعيد. لذلك كانت نهايتهما طبيعية جدًا. فقد تزوجتا وأنجبتا واهتمتا بأبيهما أما والدتهما المرحومة فقد توفيت دون أن يرياها، ومع ذلك فهما تتمنيان لو أنها ما تزال على قيد الحياة لاهتمتا بها أكثر.

وصل سليمان أول أمس، وارتاح جيدًا للمكان الذي اختاره له أبوه. حتى تمنى لو يسكن فيه هو وأبوه بصفة نهائية بعيدًا عن تلك الضوضاء القبيحة والمثيرة للعصاب. وسأل خالته أول الأمر:

- أما زال يسكن نفس الجيران هنا؟

قالت الخالة: لا شيء تغير. هل تعتقد أن سنة كافية لتغيير كل شيء في مكان يرتبط به الناس أشد الارتباط. وأما تلك البيوتات الصغيرة والأكواخ فهي كما هي. لم يحدث ولن يحدث أي تغيير هنا. الناس بسطاء والبحر جميل. انظر البحر هل تراه؟

وأطل سليمان من النافذة، ووقف ذاهلًا متأملًا دون أن يتمكن من معرفة أي شيء يفكر فيه. وقالت خالته مرة ثانية:

- كان عليك أن تسافر قبل أن ينصحك والدك بذلك. لقد قضيت سنة طويلة في الدراسة. وذلك شيء متعب حقًا.

- أعرف. لكني لا أحب الحركة وإنما السكون.

وأضاف سليمان: لقد كتبت يا خالتي لثريا حتى تقضي معنا هنا أيامًا. إنها الفتاة الوحيدة التي أرتاح لها. أما الأخريات فهن تافهات إلى حد يبعث على الجنون. ثم إنها رفيقتي في الجامعة. وهي على قدر كبير من الثقافة. باختصار: إنها تفهمني كثيرًا.

قالت خالته: ذلك أحسن. رجل بلا امرأة شيء صعب. وامرأة بلا رجل شيء صعب. سأجد مع من أتحدث على الأقل؟ إنك تقضي وقتك كله كما أعرفك في مطالعة الكتب والنظر إلى البعيد، حتى أني أعتقد أنك أحيانًا ستفقد عقلك.

- ألا تجدين أن ذلك مريح بالنسبة لي ولك على الأقل؟

وطلب إلى خالته أن تذهب وتهتم بشؤونها في المطبخ لأن به جوعًا فائقًا. ثم أغلق عليه الغرفة، وتمدد فوق السرير وشعر براحة فائقة، وبدبيب خفيف يسري في جسمه. ثم أخذ يفكر في ثريا، ويستعرض طريقتها في الحديث، وملامح وجهها، وتحركات حاجبيها أثناء الانفعال. ولم يكن سليمان يهتم إلا بخصائص قليلة في المرأة تميزها. وكانت ثريا من ذلك النوع

من النساء الذي يثير اهتمام شخص مثله. لأنه صعب وغير مفهوم إطلاقًا من طرف نوعية خاصة من النساء. إنهن ينظرن إليه إما كأب صغير أو ابن كبير لهن. ولم يكن هو يحب ذلك. أما ثريا فيشعر أنها لا تعتبره هذا أو ذاك وإنما تلائمه، ولا تشبه الأخريات. ولعل ما شدّه إليها، انطواؤها على نفسها وعزوفها عن الناس والعالم، واهتمامها فقط بالكتب، الشيء الذي يجعلها تقترب من اهتماماته الخاصة. لكن هو، كان يحب المكون الكامل والخلود إلى الهدوء والانطواء. وكانت ثريا تقول له باستمرار:

- أتمنى أن نعيش معًا منعزلين في قرية صغيرة على جبل دون أن نجب. نتأمل الطبيعة ونقرأ الكتب.

- ونفعل الحب. لكن هناك الملل.

- سنحاول أن نطرده بالقراءات الكثيرة وبالمناقشة.

- ذلك شيء حسن، لكننا لا يمكن أن نحققه. نحن في حاجة إلى مال.

- الأمر سهل. سنشتغل أربع أو خمس سنوات وندّخر لذاك اليوم العظيم.

ثم أخذ سليمان يضحك من أفكارها، في حين كانت تنظر هي إلى الأمر بجدية، وقالت له وقد تقوس حاجباها وبدت عيناها حالمتين:

- إنني لا أمزح. اسمع يا سليمان: أنت تمزح كثيرًا حتى أثناء مواجهتك لأمور جدية.

وقال سليمان:

- في الواقع أنا لا أدري. لا أدري أي شيء على الإطلاق.

وسمع خالته تناديه بعد مرور وقت قليل. فقد سلقت له بيضتين وقطعة لحم. وحاول أن يطرد التعب الذي كبل جسده، ووقف وتمطط، وقال لخالته أن تدخل الطابلة إلى الغرفة حتى يتمكن من الأكل هنا. ففعلت ذلك على الفور وجلست قبالته على كرسي قصير، لكن لم تكن لديها شهية للأكل. ولم تكن الخالة عجوزًا، بل كانت السنوات الأربعون ظاهرة على جسدها السمين المكتنز. وحتى وجهها فهو يكتسي براءة وأنوثة.

كانت خالته قبالته وقد أسلت جفنيها الحالمين وبدا نهداها بارزين بشكل ملحوظ تحت الدفينة الأنيقة التي تبرز انحناءات جسدها. وتساءل سليمان وهو يمضغ، ما إذا كان

رجل في حياتها، أو مجموعة رجال. وعلى كل حال، فهي تتحدث دائمًا عن شخص يدعى السي أحمد.. إن السي أحمد هذا يقول، وهو يشتري، وأحيانًا ذهب سي أحمد لكنه عندما زار طنجة توقف في أصيلة. ولم يعجب السي أحمد. على أن ذلك الرجل قال السي أحمد فسمعتها وكان سي أحمد. آه لو فعل ذلك فقط السي أحمد. أنا لا أدري يا ابني غير أنني سأسأل سي أحمد. صحيح. معقول، فسي أحمد قال ذلك تمامًا. إن أحمد اشترى، والسي أحمد لم يشتر. لكن سي أحمد. مثل سروال سي أحمد.

على كل حال يمكن أن يكون هناك سي أحمد آخر في حياتها، لكن سليمان لم يره قط ولم يتسن له التعرف عليه. وقالت خالته وقد بدا عليه أنه اكتفى من الأكل:

- كُلْ.. لقد قلت إنك جائع.

- صحيح، لكن يجب أن أستريح قليلًا. إن وضعي لا يسمح لي أن آكل كفاية.

- ليست عندك شهية لأنك تفكر في ثريا.

- لا.. أفكر فيك.

- فيَّ؟

- نعم.

لكني لست ثريا.

- اسمعي. اذهبي وهيئي لي فنجان قهوة.

- حالا، لكنك تعطيني الأوامر كما لو كنت ثريا.

- إنك خالتي.

واتجهت صوب المطبخ. وتابعها سليمان بنظراته. كان جسدها المكتنز يهتز بشكل ملحوظ. وأخذ يتصور سي أحمد. ومن يدري؟ فقد يكون سي أحمد هذا في سنه هو. كل شيء ممكن. واختفت وراء الباب، وسمع مع ذلك صوت خطواتها فركّز أكثر على خيال سي أحمد ولم يشعر تجاهه بأي عاطفة؟ لم يحقد عليه ولم يحبه وتمدد فوق سريره وركّز نظراته على السقف، وشعر بألم في ظهره لكنه مع ذلك لم يتكئ على جنبه الأيسر أو الأيمن، بل فضّل أن يبقى في وضعه ذاك. وتلمس علبة السجائر تحت السرير، وأشعل له سيجارة وأغمض عينيه. كان صوت خالته قد ارتفع وراء الجدار بلحن، ثم خفت الصوت وامّحى في نهاية الأمر. وشعر بلفحة الهواء فوق رأسه من النافذة ممتعة حقًا. وأغمض عينيه وأخذ يسمع حديثًا متقطعًا لخالته. حديثًا غير مرتب مثل هذيان.

لأن السي أحمد كان هناك. فوحده السي أحمد يعرف أن النساء...

وقالت خالته:

- ها القهوة! إذا أردت أن تدخن.

2

تأبط سليمان فوطته وغادر البيت في الصباح متوجهًا إلى
ـاء. كانت الرمال حارة، رغم أن الوقت مبكر. بل إن
ـشمس كانت تبدو مكتملة في السماء. ولمح سليمان مراكب
ـصغيرة مربوطة في مكان يشبه ميناء، ومراكب أخرى سوداء
قميئة في المدى. وخلفه كانت مرتفعات وأشجار الرتم كثيفة
الطريق الذي يفصل بعض البنايات الصغيرة التي تحوي
مكتبًا للتبغ ومقهى وبقالة وحوانيت أخرى، تبدو لامعة
نظيفة. وعندما اقترب سليمان من الماء ألقى بثيابه إلى الأرض
دون نظام وأخذ يقوم بحركات لتدفئة نفسه. ولاحظ أن
شبحين على بعد كيلو مترين يفعلان مثله عاريين. وكان البحر

هادئًا ومغريًا. وقد قرر سليمان أن يتمتع بهدوئه وإغرائه حتى يحين وقت الغداء. وتوقف عن القيام بحركاته. وأخذ ينظر إلى جسده ويضغط على البثور ذات الرؤوس المدببة المصفرة. فيُخرج حبيبات طرية ملساء ويدعكها بين رؤوس أصابعه حتى تذوب مثل الشحم.

نشر سليمان الفوطة، وحاول أن يجمع ثيابه بقدمه التي لم تكن سوى بلودجين وقميص بلا أكمام. أما فردتا الصندل فقد حفر لهما حفرة في الرمل ودفنهما فيها. وعندما رأى الجسمين البعيدين يطاردان بعضهما في الماء، ذهب بدون أن يفكر إلى الأمواج وألقى بنفسه فيها. وسرعان ما ألفها. وحاول أن يفتح عينيه فشعر بأثر الملح وأغمضهما من جديد، وقرر أن يغطس هذه المرة، مغمضًا عينيه بشدة حتى لا يتسرب إليهما الماء. لكن أذنيه كانتا قد ثَقُلتا. فحرّك شعر رأسه وانتفض وأخذ يضرب بيديه مصارعًا الموجات القليلة المتتالية بلا ترتيب والتي تحمل معها الرمل الكثير وتمنى سليمان أن يلتحق بذينك الشخصين ليلعب معهما في الماء، لكنهما بعيدان، ويبدو أنهما رجل وامرأة لا يريدان أن يضايقهما أحد. وتمدد فوق الفوطة على بطنه وأخذ يفكر ويتأمل في أشياء غير مترابطة. لم يكن معه كتاب، فقد نسي أن يأخذه معه، خصوصًا وأنه في حاجة إلى أن

يتحدث إلى أحد، ولو كان شخصية روائية، وأن يستمع إليه ويُعطي رأيه. كان الآخران الآن يلعبان، ورآهما ملتصقين بعد ذلك واقفين. وتخيل ما يمكن أن يحدث في خلوة كتلك بين رجل وامرأة.. فتشهى ثريا. الفتاة الوحيدة التي تشعره بدفء خاص. فقد كان يشعر وهما ملتحمان بأنهما لن يفترقا أبدًا. شعور لم يعرفه مع امرأة أخرى. فقد كانت الأخريات ينظرن إليه فترهبه نظراتهن التي تبدو ماكرة وغادرة. أما ثريا فتغمضهما بصدق وتصدر عنها أنات دافئة، يشعر معها هو، بأنها تحتمله كثيرًا، وتود المزيد من ذلك إلى ما لا نهاية له من الوقت. لكنه، مع الأسف، طاقته محدودة. طاقة أي رجل محدودة. أليس كذلك يا ثريا؟

- نعم يا سليمان، يكفينا هذا الآن. يجب أن لا نستنفد كل شيء دفعة واحدة. نترك ذلك إلى فرصة أخرى، وأصابعها مغروسة في شعر رأسه في حين تظل رؤوس أصابعه هو، تتجول بالقرب من نهاية النخاع الشوكي في الأسفل. ببطء حتى يناما نهائيًا.

ذهب سليمان راكضًا إلى الماء وتعرض للموجة التي لم تكن بلا زبد واستحلى نعومة الماء وبرودته. كان المكان قد بدأ يمتلئ. فقد انتشر على الرمل، هنا وهناك، عدد من المستحمين.

ورأى سليمان كلبًا يحوم حول فوطته، لكنه لم يبل عليها كما أنه لم يذر الرمل بأظافره بحثًا عن صندل سليمان، بل ظلّ الكلب واقفًا ينظر إلى كومة الثياب دون أن يقربها. وحاول سليمان من بعيد أن يطرده بصراخه لكن الكلب لم يسمعه. ومشى سليمان نحو الكلب والماء المالح يتسرب إلى عينيه فيغلقهما. وعندما اقترب من الكلب ظلّ هذا الأخير جامدًا ينظر إليه باستسلام دون أن يهتم به. رماه سليمان بحفنة رمل حملها على ظهر قدمه. فنصرف الكلب بهدوء باتجاه البنايات. ثم رآه يعود نحوه وخلفه صبي صغير. وكان الصبي حافيًا وقد ارتدى بلودجين أزرق مقصوصًا عند الركبتين، وقد تدلت أهدابه. وعندما اقترب الطفل لاحظ سليمان أنه مرسوم بالمداد الأحمر على السروال قلب يخترقه سهم، وتحته بالإنجليزية: لوف..

قال سليمان: من رسم لك هذا؟

- أنا.

- ومن كتب لك هذا؟

- أنا.

- ما معنى هذا الكتابة؟

- لا أدري، رأيت أختي تفعل هـذا في سرواهـا ففعلـت مثلها. نحن لسنا من هنا، نحـن مـن الـدار البيـضاء، نقـضي عطلتنا هنا. إن لأختي فخذين أبيضين هل رأيتهما؟

- نعم.

- أين؟

- لا أدري.

- آه، فهمت. أنت الذي كنت نـائمًا معهـا عنـدما كانـت ماما وبابا نائمين في الغرفة المجاورة.

- تمامًا.

- إن بابا يعرفك، ويعرف أن لأختـي فخـذين أبيـضين. لقد قال ذلك لأمي وسمعتهما.

ثم مشى الطفل، نحو مجموعة من الناس فتبعه الكلب.

وقال سليمان: هيه.. أين أختك؟

لكن الطفل لم يسمعه. وذهـب سـليمان وغطـس في المـاء وهو يشعر بسرور عارم. ولم يكن يدري سببه عـلى الإطـلاق. إن دبيب المـاء فـوق الجـسم يـشعر سـليمان بانطلاقـة غريبـة. انطلاقة من عالم جميل رائع. إلى حلم. مثـل ذلـك العـالم الحـالم

الذي يقرأ عنه في سلسلة معينة من بعض الكتب. عالم سحري.

وقالت ثريا: إنني لا أحب السحر، لا أفهمه، لكن أحب التأمل فقط.

وقال سليمان: أنا مادي، ومثلك أيضًا أحب التأمل في المادة لا في أشياء أخرى. قالت ثريا: مثل ماذا يا حبي؟ قال: مثل لا أدري يا حبي. إن لك جسمًا متناسقًا جدًا. عليَّ أن أتأمل تناسقه.. ثم نفض سليمان شعر رأسه من الماء، ورأى الطفل يركض في اتجاهات مختلفة والكلب يتبعه.

كان الكلب يقف أحيانًا على قدميه الخلفيتين ويكرر ذلك لكن الطفل يهرب ويذهب إلى الماء فتضرب الموجات ركبتيه دون أن تمس فخذيه. وقال سليمان إن ذلك لا يمنع من كون الماء سيبلل كل جسده. وصاح سليمان بعد أن كور كفيه حول فمه:

- وووو هـ. و ا و..

ثم قال لنفسه بصوت مرتفع وهو يلتفت حوله حتى لا يسمعه أحد: «يداك أوكتا وفوك نفخ». وحاول أن يسأل نفسه لماذا ولمن قال هذا المثل العربي الذي تعلمه في دروس البلاغة.

ولم يهتم لذلك. فالمكان خال من حوله والحياة جميلة. ثم بـدت له التقاسيم الرائعة لجسد ثريا. وحاول أن يتصور أخت ذلـك الطفل ذات الفخذين الرائعين، وأن يتـصور الـشخص الـذي كان ينام معها في علم أبيها وأمها.. لا شك أنها جميله. غـير أن ذلك لا يمنع كونها بليدة ولا تتحدث في الكتب والثقافة، بـل تتحدث عن مغنين غربيين رأت صورهم في مجلات رخيـصة. وشعر سليمان بـالتقزز لأنـه لا يحـبّ هـذا النـوع مـن النـاس البورجوازيين التافهين، الذين ليسوا لهم همٌّ سوى رفع المهور، وتزويج أبنائهم ببعض الأسماء التي تبدأ بـ(بن). فـ(بن) هـي التي تتزوج و(بن) هي التي تلد، و(بن) هي التي تحزن و(بـن) هي التي توسع تجارتها في إفريقيا و(بن) هي التي تدفع الرشوة من أجل الحصول على منصب في سفارة خارج المغرب، حتـى تقضي جميع أغراض (بن) الأخرى التي توجد داخل المغـرب. وهكذا فـ(بن) تجـري وراء (بـن) ومـن لـيس (بـن) عليـه أن يصبح (بن) حتى يقبله وسط (بن).

وفكّر سليمان أن أخت ذلك الطفل هـي مـن غـير شـك (بن) حفيدة (بن) وأن الـذي كـان ينـام معهـا في علـم (بـن) و(بن) إنما هو «بن» مثلهم. وتقزّز لهذه العقلية التافهة المريضة المصابة بـ(بن) وحمد الله أن صديقته اسمها ثريا واسمها العائلي

غير مبدوء بـ(بن) وإلاّ سبّب له ذلك قرفًا لا حدّ له. خصوصًا وأنه عصبي تجاه أخلاق إنسانية من نوع (بن).

وغادر سليمان الماء، وجرى فوق الرمل وهو يقوم بحركات رياضية لطرد البرودة عن جسده. ولاحظ أن عدد السبّاحين قد أخذ يتزايد، لكنهم كانوا متفرقين بحيث تبدو البلاج كما لو كانت خالية. ورأى الطفل يركض ما يزال، والكلب يفعل مثله يتمرغ في الرمل، بألفة شديدة. ونادى سليمان على الطفل، فجاء هذا الأخير وهو يقول:

- بعد قليل ستنزل أختي إلى البلاج وستراك.

- هل تعرّفني بها؟

- إنها تعرفك.

وفكّر سليمان في أن يكون هذا الطفل معتوهًا أو به خلل. ولم يتعجب لذلك، فقد بدا له شيئًا طبيعيًا، خصوصًا وأن (بن) لا تخلو من الخلل وأشياء أخرى.

وقال له:

- هل أنت معتوه؟

وأجاب الطفل: لا أفهم هذه الكلمة.

- طيب أختك، هل فخذاها جميلان؟

- لقد رأيتهما بنفسك. لقد رأيتك حين كنت تمر بأصابعك على الشعر الذي يحيط بشيء أحمر.

وقال سليمان:

- لا شك أن أباك معتوه.

- لا، أبي أصلع، وهو يعرفك. سترى أنه يعرفك. لكن من المستبعد أن ينزل إلى البلاج الآن. إنه يخجل من كرشه.

- هل يمكنك أن تدلّني على البيت الذي تسكنونه هنا؟

- نحن لا نسكن في بيت، ولكن في فيلا. أبي يقول لنا دائمًا قولوا فيلا ولا تقولوا بيت.

ثم ركض الطفل في غير اتجاه وتبعه الكلب، فتمدد سليمان فوق فوطته وأعطى ظهره للشمس وأخذ يبحث عن سيجارة ليدخن نصفها ويحتفظ بالنصف الآخر حتى يشعر بالرغبة في ذلك. ظلّ سليمان ممددًا فوق الفوطة وهو يتمتع بأشعة الشمس تدغدغ ظهره. وفكّر أنه لا بد وأن ينتظر مجيء أخت ذلك الطفل وأن يراها. فقد تصور كل شيء عنها. خصوصًا عن الفخذين الجميلين.. فسليمان يثيره في المرأة فخذاها وساقاها. وكثيرًا ما كان يتمنى لو يضع رأسه بين

فخذين جميلين، ثم يعانقهما بذراعيه، ويظل على هـذا الـشكل أطول وقت ممكن.

وقالت ثريا:

- إنك تتعبني بذلك يا سليمان.

قال سليمان:

- أجد منتهى اللذة في هذا.

- وأنا؟ أين لذتي؟ فأنا أيضًا أريد أن أعانق شيئًا. لا تكن أنانيًا. تعال نتعانق بشكل طبيعي.

- إني عبد فخذيك.

- أنت تكذب. لو كنت تحبهما لأمكن لك أن تجد أحسن منهما عند امرأة أخرى. لماذا لا تقول إنك تحبني؟

- ولكن فخذيك يا ثريا.

- لا أفهم. انهض. عانقني هكذا، لا تكن شاذًا.

رفع سليمان رأسه، وأخذ ينظر إلى الشارع الـضيـق الـذي يفصل بعض البنايات الموجودة عند رأس البلاج وأثار انتباهه رجل يجر دراجة في مؤخرتها صندوق وقـد سـقطت الدراجـة فوقـه. أخـذ سـليمان يـضحك بـصوت مرتفـع ويحـك جلـد

مؤخرته. بعد قليل سينتفخ جلده، فذلك يحدث له باستمرار عندما يتعرض جسمه للشمس. لكن ذلك لا يطول. بل تختفي الانتفاخات الصفراء وتصير بقعًا حمراء. ثم لا شيء. وبعد ذلك يبدأ جسده، على مدى أيام، في التقشر. فينشغل طيلة أيام بتقشير جسده. وفكّر سليمان أنه يشبه الحيّة إلى حد بعيد إذ تغير قشرتها. وقالت ثريا:

- إنك مثل الحية، تتسرب في جسدي في الفراش مثل الحية.

- لست حية، وإلا كنت قد لدغتك.

- لقد فعلت مرارًا. كفّ عن دغدغتي، فذلك يرعش جسدي، ويؤثر في حالتي النفسية.

ثم رأى سليمان الرجل وهو يغالب الدراجة وحده. وقف ونفض سرواله وامتطى دراجته من جديد. رآه يدوس منطلقًا ببطء، وهو يتمايل فوق السرج، ثم مرّت سيارة كادت تصدم الرجل فانحرف في الأخير، واختفى عن عيني سليمان. وقف وذهب إلى الماء وغطس فيه. أصبح بالقرب منه مجموعة كبيرة من الناس تقدّر بالمئات. وكان الطفل الصغير وكلبه قد اختفيا عن أنظار سليمان. وظلّ يتمنى أن يرى الأخت الجميلة

الرائعة. كما تمنى أن يرى الأب ذا الكرش وقال، سأتحدث إليه حتى ولو كان اسمه يبدأ بـ(بـن). إن ذلـك لا يمنـع مـن أني سأستطيع الاستفادة منه. أو، على الأقل سـأتعرف عـلى ابنتـه. وأخذ يتلهى ببعض نباتات البحر التي طفت فوق المـاء. أخـذ يطاردها ويلصقها بصدره، لكنها كانـت تنزلـق لأنهـا ملـساء فيعاود مطاردتها وإرجاعها إلى مكانهـا فـوق صـدره. وسـأل نفسه عما إذا كانـت هـذه النباتـات تحمـل ميكروبـات مـضرّة للجلد. كفّ عن ذلك، وغطس في الماء من جديد. وأخذ يفرك جسده موهمًا نفسه أنه ينظفه.

3

مرّ على سليمان بالمكان خمسة أيام. قرأ فيها قليلًا وتأمل كثيرًا في أشياء ذات بال، وتحدث إلى خالته عن ثريا وسي أحمد. ولكنه لم يكن مرتاحًا بما فيه الكفاية. فالوحدة قاسية حقًا، خصوصًا وأنه كان ينوي الانعزال بصورة نهائية. وقد تيقن أن ذلك يستحيل عليه بتاتًا. فالناس موجودون من حوله. وهو يتحدث إليهم عن أشياء لا تهمه أحيانًا، شأنه في ذلك، عندما كان في الدار البيضاء أو حتى أثناء السنة الدراسية في الجامعة، الأشياء تتم بشكل مختلف. هناك أحاديث عن الثقافة.. وهناك تطلعات لا تشبه في شيء تطلعات الناس في الحياة العادية. على كل حال، قال سليمان بأنه سيكون مضطرًا لانتظار ثريا

والحـديث عـن سي أحمـد حتـى تتغـير الأحـوال مـن حولـه. وسيخرج للغابة المجاورة. وهناك البحر بشساعته. والعالم غير مكتظ، يمكـن أن يقرأ. وربما حاول الشيء الذي لم يفكـر فيـه قط - أن يكتب انطباعاته، أن يكتـب فلـسفته الخاصـة، لكنـه يعتقد أنه لم ينضج بعد. وربما ألّف كتابًا واحدًا بالاشتراك مـع ثريا عندما ينعزلان ذات يوم في بيت يملكانه عـلى رأس جبـل هناك في الجنوب قرب تامنار أو سـميمو. لكـن هـذا الكتـاب الوحيد الذي يحتار سليمان في اختيار موضوعه.

وقالت خالته:

- إن ثريا تهتم بالسياسة كثيرًا. وهذا هو عيبها الأوحد.

قال سليمان:

- إن ثريا جميلة ولها جسد متناسق.

- نعم كل رجل يشتهيها لذلك فهي تهتم بالسياسة.

- إن أي رجل يهتم بالسياسة لا بدّ أن يشتهيها.

ورأى ذبابة تطن في الفضاء من حوله. تلقفهـا في الـسماء، وأمسكها من جناحيها. وفكر في أن يربطها بخيط صغير مثلما كان يفعل وهو طفل صغير في المدرسة. تطير الذبابـة وخلفهـا خيط ملون أو أبيض يحدث في الفضاء تعاريج. وقالت خالته:

- دع الذبابة وحالها. إنها قذرة.

- لكننا عندما كنّا صغارًا كنا نربط خيطًا بـ...

- هل تعتقد أنك صغير. اذهب لتتجول قليلًا، اخرج إلى المقهى وخذْ لك كأسًا من الشاي وتأمل الفتيات الجميلات اللائي يمرَّنَّ أمام المقهى.

في الواقع، لم تكن هناك فتيات كثيرات. فالمدينة صغيرة، لم تسلط عليها الأضواء من طرف الأجهزة الدعائية الرسمية. هناك بعض الفيلات التي اشتراها أو اكتراها أغنياء. وهناك فقراء وهم كثيرون يجلسون في المقهى يحتسون الشاي الأخضر ويسمعون الراديو ويثرثرون حول موسم الصيد القادم. أما الآخرون الأغنياء فيذهبون إلى الشاليه مع زوجاتهم وبناتهم ذوات الأفخاذ الرائعة ويحتقرون كل الناس، وينطقون الراء بنغمة خاصة. وتبدأ أسماؤهم بـ(بن) في الغالب. هؤلاء لا يحبهم سليمان ولكنه مع ذلك يذهب أحيانًا إلى هناك فيطلب بيرة خلف الواجهة الزجاجية يتأمل الماء أو يطلب قهوة إكسبريس على الإفريز ويقرأ الصحف. وقال سليمان لخالته:

- أنا في حاجة إلى ثريا. أشعر كلما فات يوم أني في حاجة إليها كثيرًا. لا بدّ أن رسالة منها ستصلني اليوم أو غدًا، لكني لا أعرف ما إذا كان البريد هنا يسير بشكل عادي.

- إن ساعي البريد يمرّ كل يوم أمام البيت. لو كانت معه رسالة لك لما نسيها. هل تعتقد أن الأمور تسير بشكل فوضوي إلى هذا الحد.

تلقف سليمان ذبابة أخرى، فصاحت خالته من هذه القذارة. أطلَقَ الذبابة في الفضاء وهو يمسح يده بتقزز في سرواله.

وقالت خالته:

- هل تعتقد أنك ما تزال طفلًا. انظر إلى شاربيك.

لم يكن له شاربان فتحسس تحت أنفه ليتأكد من أن خالته متيقنة مما تقول.

- لا أدري لماذا تعجبني لعبة الذباب هذه؟

- هذا لا يهمني. يمكنك أن تخرج الآن وتذهب لتتجول قليلًا.

لبّى سليمان رغبتها، غادر البيت وسار باتجاه الشاليه. كان الجو معتدلًا، لذا لم يفكر في أن ينزع ثيابه ويسبح. ثم أحسّ بيد توضع على كتفه فالتفت متفاجئًا. كان أحد الأصدقاء الذين يعرفهم في الدار البيضاء، وقال سليمان:

- غير ممكن.

قال الصديق الذي كان يدعى كريمو، والذي لم يكن يحب النساء:

– كل شيء ممكن. ماذا تفعل هنا؟

قال سليمان:

– وأنت؟ ما الذي تفعله هنا؟

– أنا من هنا.

– من هذه المدينة الصغيرة؟

– وماذا في ذلك؟

ثم عرض عليه سليمان أن يذهب إلى الشاليه، ليشرب قهوة أو بيرة ليتفرجا على البحر وعلى الناس. تمنَّع كريمو أول الأمر. ولكنه في الأخير قبل. وفكّر ماذا يستطيع المرء أن يفعل في هذا المكان الصغير إذا لم يقبل دعوة مثل هذه، ومن شخص مثل سليمان؟

كان الشاليه بعيدًا عن البحر قليلًا، ولكن كان يخيل للمرء أن الماء يجري تحته. لم يكن هناك زبائن كثيرون. ولكن الناس كانوا على البلاج ممددين. واختار سليمان زاوية معينة، قرب صندوق الأغاني. وقد تفضل الجرسون فوضع فيه قطعة نقدية وسألهما ماذا يشربان. تردد كريمو قليلًا لكنه لم يطلب قهوة بل طلب بيرة مثلجة. وقال سليمان:

- كنت أعتقد أني لن أعثر على أحد هنا من معارفي. هل تعرف ثريا؟

- من ثريا هذه؟ لا أعتقد.

- صديقتي الجميلة ذات...

بما أن اسمك سيروق لها، فإني سأقدمها لك ولا أعتقد أنها سترتاح لك.

- لا لزوم لذلك إذن.

وأخذ سليمان يضع في ذهنه صورة لسي أحمد. وحاول أن يوجه أوجه الشبه بينه وبين كريمو. ولكن ذلك كان عبثًا. فهو لم ير سي أحمد في حياته قط، وقال:

- هل تعرف، يا كريمو، سي أحمد؟

- من هو سي أحمد هذا؟

- غير مهم. كنت أعتقد أنك سمعت به. إنه رجل.

- كنت أعتقد أنه قط؟

- قط أو رجل سواء؟

وأخذ يضحك، وقال لصديقه:

- لماذا لا تضحك؟ يبدو أنك صعب المزاج.

- أبدًا، لكني لم أسمع ما قلته.

وألقى كريمو بنظراته بعيدًا، حيث كانت فيلات صغيرة ذات ستيل معاصر جدًا.

- هل ترى تلك الفيلات؟ قبل سبع سنوات كان المكان بلقعًا. هذا آخر ستيل في الهندسة المعمارية. يقال إنها بنيت من نقود الوزراء الذين حوكموا بتهمة الرشوة واستغلال النفوذ.

- لا أعرفها.

- غير ممكن.

- كل شيء ممكن.

وأدار سليمان الملعقة في الفنجان، واستلذّ طعم القهوة وأخرج سيجارة وأخذ يدخن. ولم يناول صديقه سيجارة لأنه كان يعرف أنه لا يدخن إذا لم تخنه الذاكرة. وقال له سليمان:

- كان من اللازم أن تدعى ماكاميش.

قال الآخر:

- ماكاميش أو كريمو سواء. إنها تفيد معنى واحدًا. أشكر الله أنه أعفاني من عادات سيئة مثل التدخين والنساء. ولكن ذلك لا يمنع من أني أحب أن أعيش.

وقال سليمان:

- في الواقع، إنها صدفة سعيدة.

- صحيح، صدفة سعيدة. وأستطيع أن أريك هنا أماكن لم تكن تعرفها. لا تعتقد أن صغر هذه المدينة يعني أنها لا تستحق أن تُزار.

- لم أكن أعتقد ذلك. ولكن نيتي كانت هي أن أستريح، وأقضي أوقاتًا طيبة مع ثريا وخالتي حليمة، هل تعرف خالتي حليمة؟

- لا... لم تتح لي فرصة التعرف عليها.

- إن أسماءهم كانت تبدأ بـ(بن).

- هذا صحيح.

- وكانوا ينطقون الراء بنغمة خاصة.

- هذا غير صحيح.

- لماذا؟

- ستحاكم بتهمة التحريض والتفرقة والعنصرية إذا سمعوك تقول هذا الكلام، نحن كلنا مغاربة.

- أنا لم أشتر فيلا بالرشوة.

- ولو..

- طيب لنغير هذا الحديث. الفيلات جميلة، والبنات لهن أفخاذ..

- لا يهمني ذلك.

ورشف كريمو آخر جرعة من بيرته ونادى على الجرسون ليناوله أخرى.

وقال سليمان:

- لا شك أنك تود أن تسكر في الجو المعتدل الجميل.

- لا أريد أن أسكر ولكني سأنزل إلى الماء، إني أرتدي المايوه تحت السروال. هل معك المايوه؟

- لا.. ثم إني لا أستطيع أن أسبح الآن، فأنا أخشى أن أصاب بزكام.

- هل صحتك تتأثر إلى هذا الحد؟

- نعم، وأكثر. يمكن أن تسأل خالتي عن ذلك.

- سنرى ذلك فيما بعد.

ثم أنهى كريمو بيرته الثانية، وقال لصديقه:

- انتظرني. سأذهب إلى الماء بسرعة. بعد ذلك سأشرب قهوة وسنتحادث معًا.

كان كريمو يحب البيرة، ولا يريد أن يسكر لأن ذلك في نظره يبعده عن واقعه القاسي. لكن أحيانًا كان يفضل أن يسكر على أن يتناقش في ريلكه الذي يحبه حتى العبادة. ولم يكن أحد يفهم لماذا يحاول كريمو أن يجمع بين ريلكه وأبي إسحق الصابي، لم تكن له ثقافة عالية، ولكنه كان شبه متخصص في شعر ريلكه وأبي إسحق. فهو يعرف حتى طريقتهما في الأكل أو النوم. وكان يردد بلا مناسبة أحيانًا أشعار ريلكه، ويحاول أن يعطيها أبعادًا لا تحتملها تلك الأبيات ولا يحتملها ريلكه نفسه.

أخذ سليمان ينظر إليه في تفكير وهو يشق طريقه إلى الماء وسط الناس المنتشرين على البلاج تحت. إنه شخص غريب حقًا، مثالي جدًا. ويبتعد تمامًا عن سليمان في كل شيء. لكن هذا الأخير يحب فيه روحه الهادئة وحبه للحيوانات وحتى كرهه للنساء. فهو يتجنبهن عن مذهب لا عن شذوذ. الشيء الذي ليس في ميسور أحد. وساءل سليمان نفسه فيما إذا كان بمستطاعه هو أن يتجنب ثريا. أن يتخلى عنها. وحاول أن يحلل هذه الفكرة ويقنع نفسه ولو مؤقتًا، في هذه اللحظة بالذات، بأن ابتعاده عن ثريا ممكن. ذلك كله عبث في عبث فسرعان ما أخذت تظهر له عارية، وهي تتنهد، تبكي أحيانًا، تغمض عينيها، وتتلوى بين ذراعيه، وتحت جسمه. رأى أيضًا

شعرها الأسود الجميل وقد غطى كل وجهها. كان نهداها مستديرين واقفين وبينهما فجوة مريحة للرؤية، كانت له كلها روحًا، وكل شيء. ارتمى فوقها ولكنه لم يستطع أن ينكـ(...) وظلّ يتحسس بإصبعه الشعرات المعرية تحت بطنها. يفعل ذلك بإصبعه ويفكر في هذه المخلوقة الجميلة التي تبعث فيه إحساسات نرسيسية قديمة. وأخيرًا، لم يكن في إمكانه أن يقنع نفسه بالافتراق عنها. وكان متأكدًا أيضًا، أن الأمر سواء بالنسبة إليها. ثم طرد ذبابة كانت تحوم حول وجهه. ورأى عندما اختفى كريمو من أمام عينيه.. صديقه الصغير الذي لا شك يبدأ اسم أسرته بـ(بن)، وقرر أن يذهب وينادي عليه ليسأله عن أخته، وحتى عن أمه إذا كان ذلك ممكنًا. وأغلب الظن أن أمه ستلبي رغبته أكثر مما ستفعل أخته.. لأن هذه الأخيرة ربما كانت مراهقة مغرورة معجبة بفخذيها وبانتفاخ مؤخرتها وبروز نهديها. فهذا النوع متعب في كل شيء. في العلاقات العادية، وفي فعل الحب. زيادة على أنه يسبب المشاكل نظرًا للإهمال الشديد الذي يتميز به هذا النوع من الجنس الثاني. فأول نطفة تكلف إجهاضًا أو مثولًا أمام المحكمة ثم قفز سليمان الدرجات إلى تحت. مشى فوق الرمل المحرق. توجّه نحو الصبي الذي كان يجري بلا هدف، ويقوم ببهلوانيات في الفضاء ورآه يتوجه نحو امرأة ففرح لذلك، إذ

اعتقد أنها أمه أو أخته. وأغلب الظن أنها أخته، فقد كانت طويلة ذات خصر نحيف جدًا، وربما بفعل الاعتناء به جدًا، واستعمال الفيبروماسور بنظام فائق، أمه على كل حال لن تكون ذات جسد طويل ونحيف.. ولا بد أنها سمينة مثل بقرة، مترهلة، كثيرة الفكاهة. وتعمل كل شيء من أجل إسعاد الشباب الذي يشبع رغبتها النهمة. هذه هي الصورة التي كانت عند سليمان عن هذا النوع من النساء، وكانت خالته تقترب منهن إلى حدٍّ ما، لكنها لم تكن لتشبههن. وصاح سليمان في الفضاء:

– هيه..

لكن أحدًا لم يسمعه. وأخذ يصفر، ويحدث أصواتًا مختلفة لإثارة الصبي، لكنه أثار انتباه عدد من الناس ولم يثر انتباه الصبي الصغير. وقرّر أن يركض وراءه حتى يدركه ويتحدث إليه. لكن الصبي ابتعد عن المرأة وأخذ يجري بلا هدف. فقرر سليمان في الأخير أن يجري وراءه. ثم أخذ يجري وهو يتألم من شدة حرارة الرمل. فأوقفه جسد رجل. كان كريمو هو الذي أوقفه. لم يعره سليمان أدنى اهتمام واستمر يجري. وقال كريمو: «لا بدّ أنه أصيب بجنون» وأخذ ينظر إليه باستغراب، وتوقف سليمان بالقرب من الصبي. غير أن كريمو لم يفهم شيئًا. ورآهما يتجهان نحوه فقال لا بدّ أن

الصبي من عائلته. كانا يتحدثان مثل رجلين عاقلين بينهما شيء من الاحترام. تعجب كريمو لذلك، وقال في نفسه: «إن هذا الشاب سيصاب بحمق. إنه غير عادي على الإطلاق.. إنه غير عادي على الإطلاق.. ولا أدري كيف يفهم الحياة». وهمّ كريمو بصعود الدرجات القليلة المؤدية إلى فوق، إلى الشاليه، لكنه سمع سليمان ينادي عليه فتوقف، وكان الرمل يحرق قدميه والشمس تخز جسده المبتل، وخصوصًا ما بين كتفيه.. وتقطر الماء فوق جبهته وتسرب إلى فمه فتفل. وقال سليمان:

- هذا هو الصديق الذي حدثتك عنه. له أخت جميلة وأم جميلة أيضًا. أراهن على أنك لا تستطيع أن تخمن جمالها الخارق.

- لم تحدثني عن صديق لك. هل جننت؟ كيف تتخذ من هذا الصبي الصغير صديقًا؟

- لا فرق بين الكبير والصغير. المهم هو إيجاد حوار بين اثنين. وأنا أستطيع أن أتحاور مع هذا الصبي إلى ما لا نهاية. إنه ذكي وإن كان ينتسب لتلك الطبقة القذرة.

- ماذا تقصد؟

- الطبقة البورجوازية. ألا تفهم؟ مهما يكن فالبنات البورجوازيات يعرفن كيف ينكـ(...) وإن كن يكثرن من

ذلك. هنّ نظيفات وسهلات إذا استطعت أن تتحمل كلامهن الفارغ وادعاءهن الذي لا معنى له.

وقال الصبي الصغير:

- سأنصرف. لأن أختي تنتظرني.

قال سليمان:

- هل معها أحد في البيت؟

- لا، ليس معها أحد في الفيلا. إنها تقلّم أظافرها الآن وأمي في الحمام وقد كوّنت قبرًا كبيرًا أبيض من رغوة الصابون. هل تعرف أن أمي غليظة بشكل مثير. مرة ضغطت على أبي بجسمها حتى كادت تخنقه. أخذ يستغيث ويستنجد بالولي الصالح مولاي إدريس. أخذت أبكي أنا وأختي فصفعته وتركته صريعًا فوق الأرض.

وقال كريمو:

- لا بدّ أن هذا الصبي معتوه حقًا. ولا بدّ أنك أحمق يا سليمان. دعه ينصرف وتعال نكمل حديثنا ونشرب بيرات أخرى.

- لا أريد، انتظر قليلًا. أود أن أتعرف إلى أخت هذا الصبي. إنها ترسم قلبًا يخترقه سهم على فخذيها. وتكتب بلون

مغاير: لوف. ألا تعرف ما معنى هذا؟ إنها تبحث عن واحد مثلي ومثلك.

- وإذا كانت عذراء؟ إنها لن تثير لك سوى المشاكل.

- سأغتصبها، سأفعل مثلما فعلت بثريا.

نفض كريمو شعر رأسه. وحاول أن ينصرف إلى الشاليه مستاء. لكن سليمان أمسكه من ذراعه وهو يقول:

- لا تغضب، سنقتسم هذه الغنيمة. لك الأم ولي البنت. على كل حال لك الاختيار.

- لا أريد ذلك. أنت تعرف أني لا أحب النساء. فدع الصبي ينصرف. إني أرى امرأة تنادي عليه.

التفت سليمان فرأى امرأة تنادي جهتهم. لكنها لم تكن تقصد واحدًا من الثلاثة. تأكد من ذلك لأن فتاة كانت بالقرب منهم ترد على المرأة بإشارات.

وقال سليمان للصبي:

- هل يكون أبوك بالليل في البيت؟

- أبي يكون دائمًا في الفيلا. ليل نهار. إنه يخاف أن يُصاب بزكام. له كرش ورأس أصلع. يتقن عدّ المال فقط. لكن أختي تسرق منه وتشتري لي الآيس كريم وتُدخل الرجال من الباب الخلفي.

- وأمك؟ هل تعرف ذلك.

- نعم. أحيانًا يكون رجلان واحد لأمي والآخر لأختي.. أما أنا وأبي فليس لنا رجال ولا نساء. على كل حال، أنا لا أزال صغيرًا ولا أعرف في هذه الأشياء. شعر كريمو باستياء كبير، ودون أن يتحدث إليهما انصرف إلى الشاليه. جلس إلى طاولته وطلب بيرة ثالثة، وأخذ يتمتع بالاستماع إلى الموسيقى. وأثار انتباهه صورة ضفدعة خضراء كبيرة مرسومة على زجاج الشاليه. وسأل الجرسون فأجاب هذا الأخير:

- إذا أردت أن تتمتع. اختصاصات المطعم يوم الخميس أفخاذ الضفادع. لقد ظلّ مطعمنا يحتفظ بهذا التقليد منذ إنشائه رغم أن المسلمين مثلي ومثلك يأنفون من أكل الضفادع. هل أحكي لك قصة؟

وقال كريمو:

- لا. ليس لك الحق بمضايقة الزبائن بحكاية أشياء تخصك.

وقال الجرسون: صحيح. ثم انصرف.

ورأى كريمو الصبي ينصرف وهو يقفز ويذري الرمل في الفضاء. كان سليمان جامدًا في مكانه يفكر في شيء. ثم استدار بسرعة وقفز الدرجات القليلة بخفة. التحق بكريمو وقال:

- وجدتها. هذا المساء سيكون ممتعًا. إذا كنت تود أن تعيش فالحياة قصيرة. تعال معي هذا المساء سنتسلق جدار الفيلا وستكون واحدة لي والأخرى لك.

- إني لا أحب النساء. يمكنك أن تشرب بيرة حتى تستعيد رشدك.

- آه. فهمت. لكن ريلكه كان يحب النساء.

- لا يهمني.

- طيب، هل تريد أن تتزوج برجل. إن ذلك فضيحة حقًا. افعل مثل أوسكار وايلد إذا شئت.

- لا وايلد ولا هم يحزنون. لا أحب النساء. أحب نفسي وأعذبها كما يحلو لي. لا أريد أن أكرر أسطورة تاريخية قديمة.

وقال سليمان بانتباه:

- قل لي بصراحة: هل تمارس العادة السرية؟

- فخجل كريمو من السؤال. وظلّ يحدق في صديقه باشمئزاز. وأعاد سليمان السؤال مما أثار حفيظة صديقه. وقال هذا الأخير:

- اسمع. لا أحب مثل هذا الكلام. إذا كان ذلك سيستمر فمن الأفضل أن نفترق الآن.

- لكنك لم ترَ خالتي بعد.

- شوف لخالتك رجل آخر ودعني وشأني.

وقال سليمان وهو ينادي على الجرسون:

- أعتذر. سأكف عن هذا المزاح إذا كنت تعتقد أن ذلك مزاح حقًا. سأسحب كل ما قلت. هل أنت مسرور الآن؟

وقال كريمو:

- حسنًا تفعل.

4

قال سليمان:

- كيف وجدت أمها؟ إن ابنتها كانت رائعة. ذلك ما كنت سأقوله لك.

- أنا لم أمسس لا أمها ولا أباها. قلت لك إني لا أستطيع أن أفعل. سأحاول ما أمكن أن أترفع عن كل شيء من شأنه أن يدنس جسدي الطاهر هذا.

- لكنهما رائعتان يا كريمو. أراهن على أن الزوج كان هناك مختفيًا في غرفة أخرى مجاورة. وربما، هو الذي شجعها على ذلك. هذا المجتمع يجب أن تعرفه جيدًا، إنه غريب، غريب.

كان هواء الليل منعشًا حقًا. وكان ضياء القمر واضحًا في السماء ورائحة الأزهار تملأ المكان وقد تدلت أعناقها من حيطان في الفيلات. سمعا كلاكسون سيارة في هذا الليل فغادروا الطريق إلى الرصيف. وقال سليمان:

- هذا البليد يزعج الناس. ألا يعرف أن ذلك ممنوع.

- ممنوع أو غير ممنوع سواء. كل شيء مباح في أي وقت وفي أي مكان.

- ليس ذلك صحيحًا.

- لماذا؟

- لأنك لم تبح لنفسك تلبية حاجة فيزيقية عادية مثل الطعام والشراب والهواء.

- هناك فرق يا سليمان. لا أدري ما الذي تدرسونه في الجامعة إذا كان تفكيرك قاصرًا إلى هذا الحد.

- ليس قاصرًا، ولا أي شيء. لكنني أحاول أن أفهم ما أريد. هل تعرف؟ إني أفهم أشياء كثيرة لكني أترك ذلك لنفسي. وإذا حاولت إيصال ذلك إلى الآخرين يقع الاصطدام فورًا معهم.

- المسألة ليست إذن في فهمك العميق للأشياء. ولكن في طريقة إيصالك ما فهمت للآخرين. قل لي هل تحب القطط؟

- لماذا؟

- أردت أن أعرف فقط.

- أحب كل الحيوانات. وأنت؟

- أحب الكلاب والقطط والجرذان والسماء والماء وكل شيء.

كانت الفيلات في هذه الساعة هادئة، مستكينة. وحاول سليمان أن يتصور ما يجري الآن داخلها. وقال لنفسه ترى ما عساه يجري سوى ما جرى قبل لحظات في الفيلا التي كان فيها. لا بدّ أن أرباب هذا الفيلات نشأوا قوّادين أول الأمر. وقال ذلك لكريمو فقال هذا الأخير:

- نشأوا قوّادين وما يزالون. إنهم في حاجة إلى قليل من الصوفية حتى يطهروا أنفسهم من هذه التفاهات.

- صوفية ماذا يا كريمو؟ لا أحد يريد أن يتطهر.

- تلك هي مأساة الناس. حتى تلك العجوز السمينة لا تريد أن تتطهر.

- إنها ليست عجوزًا. لها فخذان رائعان وتشرب حتى يمكنها أن تنام مع ولدها لو كان لها ولد.

وقال كريمو:

- إن هذه الطبقة الوافدة من البيضاء قد أفسدت هدوء المدينة الصغيرة. في هذه السنوات الأخيرة كان كل شيء سعيدًا هنا. وفي هذا الليل كنت تسمع، ومن كل مكان ضربات البنادير والدفوف والطبول. وكانت الأعراس والحفلات الدينية الكثيرة. كان الناس سعداء. أما الآن فأنصِت إلى هذا الصمت اللئيم. لقد أصبح الناس هنا يخافون من هؤلاء. لم تعد تستطيع أن تسمع صوت بندير أو ناي، لقد منعوهم من حفلاتهم الجيلالية.

- آمولاي عبد القادر الجيلالي.

ومن حفلاتهم العيساوية.

- آسيدي الهادي بنعيسى.

وقال كريمو:

- يبدو أنك تتهكم. إن كلامي هذا لا يعني أني مع هذه لحفلات وحلقات الذكر. ولكني أحدثك فقط عن التغير لذي أحدثه هنا أصحاب الفيلات.

لم يكن سليمان يسمعه الآن، بل ابتعد عنه إذ رأى مجموعة من الناس وهي تتشابك بالأيدي بعيدًا عنهما.

أما كريمو فلم يهتم للأمر. سار بخطواته البطيئة المتأنية يتبع صديقه. بينما كان هذا الأخير قد التحق بالمجموعة المتشابكة. كانت هناك امرأة وقد تلطخ وجهها بالدم وهي تصرخ، متعلقة برجل مهتاج، وكان الرجل يصرخ، والناس يحاولون أن يفصلوا النزاع.

- اتركيني أيتها القحـ(...).

- لن أتركك أيها الزا (...)، حتى نصل إلى مركز الشرطة.

وكان الناس يهدئونهما:

- العنا الشيطان. ما هكذا يفعل زوجان أمام الناس في الشارع.

وفهم سليمان أن الأمر يتعلق برجل وزوجته. وسأل أحد المتجمعين عن فحوى القصة لكنه لم يجبه. وسمع المرأة الملطخة بالدم تُكثر من سبابها البذيء.

- تعال معي إلى الشرطة أيها الزا (...). تترك أولادك وتذهب عند تلك القحـ(...).

وخجل الرجل الذي سبق أن أشبعها رفسًا وركلًا أمام الملأ. وقال رجل عجوز:

- احشمي يا ولية. ما هذا الكلام الذي يصدر عن زوجة؟

وقالت المرأة البذيئة، السليطة اللسان:

- ادخل سوق راسك. أنا التي أعرف هذا الزا (...).

وقال الرجل العجوز:

- أعوذ بالله ما هذا الكلام؟

ثم اهتاج زوجها من جديد. وعقد كفه وألقى قبضته في وجهها حتى ارتمت أرضًا، وأخذت تتمرغ في دمها وهي تردد:

- قتلتني.. قتلتني آلزا (...).. آز.. آز..

ومثل شاة ذبيحة تركها سليمان وصديقه. أكملا طريقهما دون أن يناقشا ما رأياه بل اكتفى أحدهما فقط بالقول:

- غير معقول.

وقال الآخر: كل شيء ممكن، كل شيء معقول.

- لكنها سليطة اللسان. إنها تستحق أن يُقطع لسانها. ما هذا الكلام الذي يصدر عن زوجة أمام الملأ؟

- لو كنت مكانها ما عساك تفعل.

- لست امرأة.

- لنفرض أنك امرأة.

- لا أريد ذلك. أتمنى أن لا تهينني أكثر.

- لا أهينك. ولكن قلْ لي: هل تحب القطط؟

- لماذا؟

- أردت أن أعرف.

- أحب الكلاب والقطط والجرذان والسماء والماء وكل شيء.

- ما معنى كل شيء؟

- كل شيء وكل شيء. لا أدري بالضبط. دعني أستعد تأملي في عالم الليل الغريب.

أخرج سليمان سيجارة وأخذ ينفث دخانها في الظلام. الأضواء قليلة منتشرة بعيدًا في الطريق الذي يؤدي إلى الحي الشعبي الصغير. هناك مسافة تفصل الفيلات عن هذا الحي لكن الناس في الصباح يلتقون عرايا على البلاج يقذفون بعضهم بعضًا بالكرة. وأحيانًا يذرون الرمل بعضهم على بعض ويقهقهون. ويضحك البورجوازي مع الرجل الشعبي.

وأحيانًا يقدم له ما تبقّى في آخر الزجاجة من ليمونادة. فيأخذها الرجل الشعبي وقد يشربها أو لا يشربها لاعتقاده بأن ذلك إهانة له.

وقال كريمو وهو يضرب كفًا بكف:

- قل لي: هل فكرت يومًا في إهانة غيرك؟

- دائمًا.

- لا بدّ إذن أن الآخرين يفكرون في إهانتك.

وقال سليمان:

- وكأنك لست من هذا العالم. إنهم يفعلون دائمًا. إن تلك المرأة بسبابها البذيء ذاك كانت تهينني ولم تكن تهين زوجها.

وقال كريمو:

- لم أكن أعرف أنها تهينك. على كل حال فأنا لم أسمع إلا القليل من السباب.

وكان البحر يمتد عن يسارهما شاسعًا ومضاء. تنتهي المياه بيضاء الطرف موشوشة والطريق خالية. كانت شاحنات هرمة رابضة على جانبي الطريق. ويظهر الحي الشعبي غير البورجوازي منكمشًا على نفسه. وخلفه بكل تأكيد بيوت من

الصفيح كثيرة ومتزاحمة وغارقة في الظلام. لكن الهدوء لم يكن يسودها بالفعل. وهما يقتربان من البيوت الواطئة، ويبتعدان عن الفيلات، سمعا صوت الدعاديع خافتًا آتيًا من بيوت الصفيح.

وقال سليمان:

- هل تسمع صوت الدعدوع قادمًا من هناك..

وأشار بيده، فقال كريمو:

- إنه صوت البندير والدعدوع معًا.

- الدعدوع والبندير لا يجتمعان في حلقة واحدة. ألا تعرف أن عيساوة يفضلون الضرب على البندير والاستعانة بالعوادة؟

وقال كريمو:

- لا أعتقد أن ذلك ضروري.

- إنه ضروري وأكثر. أما حمادشة فهم الذين يستعملون الدعاديع ويضربون عليها واقفين لا جالسين.

وقال كريمو:

- يبدو أنك خبير في شؤون هذه الحيثيات.

- لست خبيرًا ولكنها طفولتي. هذا ما تبقّى لنا فقط من ذلك الماضي الذي أحسه ممعنًا في القدم.

وقال كريمو:

- الهدوء الآن والصمت. يبدو أنه آن أن نفترق ونلتقي غدًا.

- لكني لم أقدم لك بعد خالتي.

- نؤجل ذلك. لكني لست شبيهًا بذلك الشخص الغريب الذي أسميته سي أحمد.

- خالتي، الأمر عندها سواء. سي أحمد أو كريمو لا يهم.

- لكني لا أستطيع ذلك الليلة وربما حتى في الأيام القادمة.

- إن كل شيء بمستطاع الإنسان. أقنع نفسك أولًا وسترى أن كل شيء ممكن التحقيق.

وقال كريمو وهو يبتعد عنه:

- أستطيع إقناعها في أشياء دون أشياء أخرى. هل فهمت؟

- ممكن وغير ممكن.

5

قالت الخالة لسليمان:

- يبدو أنك لم تعد تفتقد ثريا الآن، بعد أن التقيت صديقك كريمو.

قال سليمان:

- المرأة ليست كالرجل. لكني بالفعل لم أعد أشعر أني بحاجة ماسة الآن إلى ثريا. أتساءل فقط لماذا لم ترد على رسائلي المتوالية. الشيء المستبعد الذي أفكر فيه الآن هو أن تكون قد حصلت على رجل آخر.

- ممكن وغير ممكن.

- غير أني لن أستطيع أن أهضم ذلك.. وإلا فإن تأوهاتها في الفراش كانت مجرد نفاق. سأفقد ثقتي إذ ذاك في جميع العواطف البشرية.

- إنك تتكلم ونسيت أنك تخاطب خالتك. أنا لست صديقتك. أنا خالتك.

- أعرف ذلك جيدًا. لماذا نخجل من الحديث عن أشياء نفعلها ونستلذها: ألا تتأوهين، وكانت أمي تتأوه.. ويتأوه أبي وسي أحمد وثريا وسليمان و.. و..

انسحبت الخالة وتركته يسرد أسماء الذين يعرفهم والذين يتأوهون ويستلذون في ذلك، وفي قرارة نفسها كانت تقول إن معه الحق. فهي مثلًا تتأوه عندما تذكر اسم سي أحمد وربما تأوهت عندما ترى كريمو. فهي امرأة وحيدة مغلوب على أمرها كثيرة اللحم والشحم ولم تجد لحد الآن من يُذهب هذا الشحم عن جسدها. فالبركة في سليمان الذي يُعرفها على كريمو. ولكن اسمه هذا غريب، له أكثر من دلالة. والأغلب أنه مخنث لا هو بالمرأة ولا بالرجل.

وهذا النوع من الرجال لا فائدة فيه، إنه يتحدث كثيرًا ويعرف في شؤون النساء أكثر مما تعرفه النساء أنفسهن. لكنه في نهاية الأمر، مسل وممتع. وربما أخطأت الظن فلم يكن اسمه

ينطبق عليه. وعادت الخالة من جديد تسأل سليمان:

- متى تأتي بصديقك كريمو إلى البيت؟

- لا أدري. لقد حاولت، لكنه أصر على ألا يأتي معي. وقال إنه ربما لن يفعل حتى في الأيام القادمة.

- يبدو أنه عنيد.

- لا أدري. لكنه يحمل أفكارًا غريبة ويقرأ الكثير من الكتب.

- مثلك.

- بل أكثر.

- إن ذلك لم يمنعه من..

- من النساء.

- اخجل من خالتك.

- سأفعل في المستقبل إذا أصبحت مثل الآخرين. أما الآن فأنا نفسي. سليمان فريد عصره.

- ما رأيك لو تستدعيه لتناول الغداء معنا اليوم؟

- لقد تواعدنا على أن نلتقي بعد الظهر. ولا أعرف أين يسكن. قال إن بيتهم يبعد عن بيتنا بثلاثة شوارع فقط.

وبعد لحظة صمت قال سليمان للخالة:

- ما رأيك أن تذهبي وتهيئي لي فنجان قهوة؟ سأقرأ قليلًا.

فلبّت خالته رغبته وتناول هو كتابًا. وأعجبه أن يكون الكاتب فقيرًا ومريضًا ولا يغادر بيته ويكتب بلغة إنجليزية متينة لم تستطع إطعامه. وتمنى أن يكون مثله دون أن يكتب بلغة عربية متينة لا تستطيع إطعامه. وأخذ يقرأ في «شهادة راندولف كارتر». وأتت القهوة وقالت الخالة:

- ألا تجد أن خالتك ماتزال شابة؟

قال: هو كذلك يا حليمة. لك فخذان ونهدان كبيران وكل شيء. ولو لم تكوني خالتي...

- اسكت فإن الحيطان لها آذان.

- لن يسمعنا أحد. ثم إن ذلك غير ممكن حدوثه. فأنا قد تعودت على كس معين من صنع ثريا.

- تعيش وتربي الريش.

- دعيني الآن أقرأ. في المساء ربما جئت بكريمو وستقضين أحسن أيامك في هذا المكان المنطوي على نفسه.

هذه الرغبة تنتاب سليمان أحيانًا. فهو يود أن ينفرد بنفسه

مع كتاب يقرأ فيه بتمعن صفحات قليلة حتى ولو كان الأمر يتعلق بكتاب تافه. يقرأه بتمعن ولكنه لا ينهيه إذا لم يشده إليه. وأحيانًا أخرى يفضل أن ينفرد بنفسه دون أن يكون معه كتاب. يدير مشاريع كثيرة في رأسه تبقى في الغالب بدون تنفيذ. منها مثلًا مشروعات الكتابة، فهو يعتقد أن أفكاره لن تؤدي به إلا إلى الجحيم، وهكذا يظل يكتب ويكتب ويستعرض باهتمام آراء النقاد الأذكياء فيه الذين فهموا عبقريته وقدروها. حتى إذا انتهى من ذلك خلد إلى الراحة فالنوم. وعندما يستيقظ تكون جميع أحلامه قد ضاعت منه فلا يتذكر منها شيئًا.

أخذ الآن يقرأ بتمعن في «شهادة راندولف كارتر»، وكان يختلط في رأسه ما يقرأه وما يفكر به. باختصار، لم يكن يركز ذهنه. وأخذ يتقلب في الفراش. ووضع الكتاب جانبًا وحاول أن يتحدث لنفسه، فتحدث إليها حديثًا متقطعًا. ورأى الكثير من الذباب يحوم حوله ويطن طنينًا مزعجًا. وتصور الغرفة مثل مزبلة. وحاول أن يضع هنا بقية طعام معاف وهناك لحمًا نتنًا وهناك جثة كلب تجمّع فوقها الذباب. وأخذت الصور تختلط في الذهن لتتشتت في نهاية الأمر. تصور أشياء كثيرة. وأعياه التصور. وقال لا بدّ أن ينام. لكنه استيقظ قبل لحظات من النوم. ولم يعرف ماذا يمكنه أن يفعل بنفسه. وعاد إلى كتابه

وفتحه على فصل «شهادة راندولف كارتر» وأخذ يقرأ من جديد وتذكر أن ما كان في حاجة إليه دون أن يعرفه بالضبط هو تدخين سيجارة. فتّش عن واحدة وأخذ يدخن ويقرأ. ثم يرفع رأسه عن الكتاب ليتأمل الدخان المتلاشي في الغرفة. فهذه إحدى النوبات التي تصيب سليمان أحيانًا. يكون محتارًا. مشتت الذهن، لا يعرف ما الذي يفعله بنفسه. وعندما تكون بجواره ثريا فإنها تستطيع أن تسرّي عنه، لأنها تأخذ في مناقشته حتى يقتنع فيهدأ فيسترخي. أما خالته حليمة فهي ضيقة الأفق، لا يستطيع أن يناقشها في شيء. هي شبيهة بأغلب النساء حتى أن المعرّي لو بُعث من جديد وأخذ يقرأ من «رسالة الغفران» لما وجدت أن تقول شيئًا سوى أنه قبيح لأنه أعمى. أما ثريا فهي ليست من هذا النوع من النساء. ليس فقط لأنها ذات عقل وقّاد، ولكنها أيضًا ذات عاطفة سامية غير عادية. وبالرغم من ذلك فإن سليمان الآن، قد أخذ يشعر بأنه ليس في حاجة إليها. سيجد من يعوضها ولو مؤقتًا، إذا لم ترد أن تلبي دعوته للحاق به في هذا المكان. فهناك س.. أخت الصبي ذات الفخذين، لن يناقشها في شيء، ولكنه سيعرف كيف يقبّلها أو ينام معها في الغابة أو في البيت. وليس عنده أي مانع أن يفعل نفس الشيء مع أمها إذا رغبت في ذلك وظلّ كريمو في سلبيته تجاهها. ثم فجأة وضع الكتاب وغادر البيت

دون أن يقول شيئًا لخالته. كان الماء الأزرق ممتدًا في رأس الطريق. وشعر سليمان بعطش فاخترق صفوف الطاولات وقد تجمع حولها أناس في جلابيبهم يثرثرون، كانوا يختنقون داخل جلابيبهم الصوفية. لأن الحرارة شديدة. بل كان منهم من يرتدي جلابتين. وقد ظهرت أقدام بعضهم حافية غليظة مثل أظلاف البقر. طلب كأس ماء وشربها في جرعة واحدة وقال «ميرسي» وسمع صوتًا من خلفه يقول «ما حناش نصارى». لم يهتم لذلك بل كان منجذبًا بسحر ماء البحر والأمواج البيضاء المتكسرة وهي تعانق الطريق. قفز إلى تحت وأخذ يجول بنظراته في البلاج. ويخمّن أين يمكن أن توجد س الآن. عن الشمال أو عن اليمين. وسار بغير اتجاه فوق الرمل المحرق. كان يقترب من الماء فيلفحه هواء البحر الرطب وفتح قميصه عن صدره. ومرّ بكفه على جسده فشعر بقشعريرة.. ثم استحلى ذلك ودار على نفسه دورات متوالية وألقى بكلمة إلى امرأة ممددة فوق الرمل. لكن المرأة لم تسمعه وأعاد الكرة وهو يتوقف عند رأسها:

- إن لك فخذين رائعين...

- ...

- نهدان كبيران.

- ...

- خصرك نحيف وشفتاك جميلتان.

- ...

- لا أحد يستطيع أن يضاجع مثلي.

نظرت المرأة إليه هذه المرة بغضب شديد ثم أخفت وجهها تحت ذراعيها وهي تقول:

- تفو.

وأضافت المرأة:

- هل أنت أحمق؟ اذهب إلى حال سبيلك أيها الزا (...)

أخذ سليمان يقهقه وهو يبتعد عنها. وأعجبه أن يرى الغابة كثيفة خضراء ممتدة وبجوارها الفيلات الواطئة. وتمنى لو تكون له فيلا حتى يعرف كيف يشغلها. بالتأكيد، لن يعيش مثل ذوي الكروش الغليظة وبالتأكيد أيضًا لن يصبح قوادًا. كان الشاطئ شبه فارغ. ولكن هناك مجموعة من الناس توجد بعيدًا بعيدًا. قرب مكان يسمونه دار السلطان المهدومة. وفكّر أن يلتحق بهم، لكنه لا يستطيع أن يمشي مسافة ثلاثة كيلومترات. فهو يريد الآن أن يبحث عن س، عن سوسو. إنها تعانى من الفراغ والوحدة. وليس لها حب هنا. على أنها لا تنكر أنها عرفت الكثير من الرجال في الدار البيضاء.

وقال سليمان:

- لكن أخاك الصغير قال إنه رأى شابًا معك.

- إنه لا يرى ولا يسمع، إنه يكذب.

- لا يهم أن يكون لك صديق. المهم أن أكون معك في لحظات معينة.

- أنا شخصيًا لا أريد هذا. أريد أن يغار عليّ الرجل الذي يصاحبني.

- ليس ذلك من عادتي. ولكني سأحاول أن أفعل إذا كنت تريدين ذلك حقًا.

ونفثت سوس دخانًا مخدرًا، من سيجارة الكيف. ناولته السيجارة وهي تقول:

- في الواقع الرجال الذين عرفتهم كانوا يدخنون الكيف. آه لو كنا نتعارف في الدار البيضاء لأريتك أماكن لا تستطيع أن تغادرها 24 ساعة على 24 ساعة. الموسيقى والكيف. هل تضرب على الطبلة؟

- لا. ولكني أتقن الضرب على البندير. هل عندكم بندير؟

- للأسف لا. إن أمي كانت تنظم لنا حفلات مثل هذه.

أبي لا يعجبه ذلك. ولكنه يجد نشوة لا حدّ لها حسب ما تقول أمي. ثم إنه لا يستطيع أن يعاكسني أبدًا. أفعل ما أشاء.

وعندما ناولها سليمان السيجارة من جديد سحبت نفسًا عميقًا عميقًا. وقفت عارية أمامه بعد أن تخلصت من الروب القصيرة التي لم يكن تحتها شيء. وأخذت تردد كلمات بالإنجليزية.

وقال سليمان:

- هل تتحدثين الإنجليزية؟

- نعم. تعلمتها في الليسيه وكنت في إنجلترا في العام الماضي. عمي يملك معمل نسيج في...

لم يكن سليمان قد وصل إلى المرحلة التي وصلتها. وطلب منها أن تدلّه على الكيف حتى يملأ سيجارة ثانية. إن هذه الليلة رائعة جدًا، ولا أحد يدري ما الذي يفعله كريمو الآن مع أمها في الحديقة. فتحت سوسو صندوقًا صغيرًا وأخرجت منه قطعة من الحشيش. قالت وهي تجلس بين فخذيه عارية:

- هل تعرف كيف تصنع شيلومًا؟

- لا.. أعرف كيف أدخنه فقط.

أخذت تكسر جزءًا من قطعة الحشيش. ذرته فوق ورق

بسرعة. وقالت إن عليه أن يتعلم كيف يفعل. مزجت كل ذلك مع التبغ الأصفر. وملأت الشيلوم. وسحبت نفسًا عميقًا. ثم ناولت الشيلوم إلى سليمان وهي تقول:

- رحلة سعيدة.

ثم أضافت:

- هل تعرف كيف تضاجع؟

قال سليمان:

- نعم. أتقن ذلك مع ثريا.

- ستريني ذلك فيما بعد. أي أسطوانة تختار؟

- لا أدري.

ذهبت س إلى البيك آب، انحنت فظهر شق خلفها. أخذت تدير مؤخرتها على نغمات الموسيقى لكنّ سليمان في هذه اللحظة أصبح مثل كريمو. وقال لا شك أن هذه هي اللحظة الإنسانية السامية حيث لا يشعر الإنسان برغبة جنسية. لم ينبض فيه عرق. وكان يحس بأنه بدأ يسافر مع س، ومع أمها ومع كريمو.. ونادى على س وناولها الشيلوم. فتركت البيك - آب وجاءت لتجلس بين فخذيه وأخذت تدخن بعنف. وقال سليمان:

- إنك تدخنين كما لو كان بك جوع قوي إلى ذلك.

- إني أحب ذلك. اسمع شيري، دعني أفعل ما أشاء. إني لا أدري ما الذي تفعله أمي الآن.

- ما تفعله أمك لا يهم. هل عندكم قطط هنا في هذه الفيلا؟

- لا مع الأسف. نحن لا نحب القطط. نحن نحب الكلاب. هل تحب الكلاب؟

- نعم أحب القطط والسماء والماء و...

- هل تحب أمي؟

- لم أرها بما فيه الكفاية. هل أبوك قوّاد؟

- لا تقل هذا. إنه أبي مع ذلك. وأنت؟ هل أبوك قوّاد؟

- لا.. إنه متقاعد.

- وأنا أيضًا أبي تاجر. ليس قوادًا ولا أي شيء.

- لكن اسم العائلة يبدأ بـ(بن).

- لا تكن عنصريًا وإلا طردتك.

ثم نهضت من فوق فخذيه، وأخذت تتلوى في الغرفة كالأفعى. ثم قالت:

- نحن نحب أن نعيش. أقصد، أنا التي تحب أن تعيش. ما رأيك في أن نفعل نفس الشيء كل مساء؟

قال سليمان وهو يسحب نفسًا من الشيلوم:

- ليس عندي أي مانع. لكن ما رأيك في موشي ديان؟

- لا أدري. كان عندنا كلب ولم يكن يُسمى موشي ديان. كان يسمى، كان يسمى. لم أعد أستطيع أن أتذكر.

- اسمه موشي.

- لا.. اسمه دايان. (صمت) ليس صحيحًا، لم يكن اسمه دايان. آه عفوًا. كان اسمه موشي. هل كلبَك يدعى موشي؟

وقال سليمان:

- إن هذا الحشيش رائع.. لست مدمنًا. ولكن أجد متعة في تدخينه. بعد قليل سأرحل.

- رحلة سعيدة.

- وأنت، هل رحلت؟

- لا أدري.

- لا شك أنك رحلت.

- أريد أن نرحل معًا.

- انتظري قليلًا.

واجتذب نَفَسًا عميقًا من الشيلوم. ثم تمدد فوق السرير. فتح أزرار قميصه. ألقى بالقميص إلى الأرض. وشعر أن بنطلونه يضايقه. وكانت الغرفة قد امتلأت بالدخان. فالنافذة لم تكن مفتوحة. ومع ذلك فقد كانت الموسيقى تتسرب إلى الحديقة من الجهة الخلفية، هادئة ممتعة. ولم يكن يدري سليمان ما الذي يفعله كريمو في الحديقة. وسيعرف فيما بعد أنه لم يفعل ولن يفعل شيئًا.

كانت الحرارة شديدة. وكان الناس يتراشقون بالرمل، ويضربون الكرة بأيديهم وأرجلهم ورؤوسهم. أما النساء فكانت تنفلت الكرة منهن بسرعة وتسقط على صدورهن وبطونهن وأفخاذهن. وأحيانًا يتعثرن فيسقطن فيهرع رجل ليساعدهن على الوقوف. ومن شدّة تكرار ذلك، بدا لسليمان أنهن يتعمدن الدلال والضعف. وقال في نفسه لا بأس، يمكنه أن يفعل نفس الشيء الذي يفعله هؤلاء الرجال. أما أهل المدينة الصغيرة الذين لم يكونوا سيّاحًا، فقد التفوا في جلابيبهم قرب مجموعة من النساء لا تظهر منهن سوى العيون. وأحيانًا

يزلن اللثام ويرفعن الجلابة عن سيقاهن الصفراء المترهلة ويمضغن المعلك بفرقعة مسموعة، ويعلقن على البورجوازيات وينتقدن نحافتهن. فالمرأة الجميلة هي المرأة السمينة. وهي التي تعرف كيف تدير حوضها أثناء النوم.

وقالت امرأة لامرأة وهما جالستان فوق السور دون أن يتمكن رجل من سماعها:

- لا أدري كيف تفعل هؤلاء الفتيات في المدينة مع أزواجهن.

وأجابت الأخرى:

- إنهم يحبون فيهن الأصباغ فقط. ليس لديهن لحم ولا شحم.

وقال سليمان لنفسه:

ذاك هو صديقي الصبي. سأدركه فورًا وسيدلني على أخته. وسأسبح حتى أنهك. وربما دخنت حتى أرحل.

وأخذ يجري بطريقة جنونية فلم ينتبه له أحد. ثم رفع عقيرته بالنداء مخرجًا جميع الأصوات البدائية التي لم تكن تعني شيئًا. وسمعه الصبي الصغير، وكان هذه المرة يلعب بكرة. يجري خلفها ويقذفها للموجات المتلاشية، فتطفو فوق الزبد

المختلط بالتراب. توقف الصبي عن ذلك. وعندما تأكد من أن سليمان هو الذي ينادي عليه، تأبط كرته وأسرع نحو سليمان. وحاول أن يبسط ذراعيه ليعانق سليمان ربما، لكن الكرة سقطت وهربت منه منحدرة نحو الماء. سبقه إليها سليمان وطوح بها بعيدًا. تبعها الصبي وهو يقهقه عاليًا. وقال سليمان: «هيه. اتركها.. أين سوسو.. أين حبيبتي سوسو؟».

وأمسك به سليمان من كتفه وقال له:

- سأحتفظ لك بالكرة. اصعد إلى الفيلا وقل لسوسو أن تأتي. سأنزع ثيابي وأنتظرها هنا.

وقال الصبي:

- لا أستطيع؟ الفيلا بعيدة.

- إذا ذهبت سأعطيك دجاجة.

- طيب، احتفظ بكرتي. سأعود سريعًا.

تمدد سليمان فوق التراب الجاف. ولم تكن معه فوطة. وضع سرواله وصنداله عند رأسه. وفكّر أن يذهب إلى الماء. لكنه لم يحتمل أن يلتصق التراب بجسده بعد ذلك، وقال سأنزل إليه بعد مجيء سوسو بالفوطة. وقف وأخذ يلعب بالكرة بقدمه وبطنه وظهره. انحدرت الكرة إلى الماء فأسرع

إليها حتى لا تجذبها الأمواج إلى الداخل. وعندما كان الصبي متوجهًا نحو الفيلات، كانت تدور في رأسه بعض الأفكار حول الدجاجة. سيتمكن من نتف ريشها وتعويمها في الماء. أو أيضًا، سيحتفظ بها في قفص مثل عصفور نادر ويقدم لها الزؤان. ورآها سليمان قادمة. وشعرها الأسود يتبعها من الخلف وقد لعب به الهواء الخفيف والريح المندفعة فجأة. كانت ترتدي سروال جين قديما. وتصور سليمان أنه مفتوح من الأمام. وقال إنها لا تخجل. لكنها عندما اقتربت لم يكن سروالها مفتوحًا ولا هم يحزنون. ولم يكن أخوها معها.

وقال لها سليمان:

- كنت أعتقد أنك نزلت إلى البحر. هل تغدّيت؟

- لا.. كنت أستمع إلى الموسيقى. دخنت سيجارة واحدة بعد الإفطار. وأخذت أستمع لموسيقى البوب.

وقال سليمان:

- انزعي ثيابك.

ضربها بالكرة وهو يقهقه عاليًا، وضربته بدورها فطوحت بها إلى الماء. لكن الأمواج ردتها فتلقفتها امرأة سمينة وردتها برجلها فسقطت على مؤخرتها الكبيرة وقالت: «آويلي!».

وضحك سليمان وسوسو. وقالت سوسو:

- سنسبح قليلًا. نتمشى. ثم نذهب إلى الأشجار. هناك يمكننا أن ندخن.

- لندخن هنا. ليس ممنوعًا ولا أي شيء. لقد رأيت بعض الهيبيين يدخنون السبسي على مرأى ومسمع من الجميع.

- بالنسبة لنا الأمر يختلف. سيمرّ بعض الناس الذين يعرفون أبي. وسيتقوّلون كثيرًا.

- كما تشائين. أنت أدرى بكل شيء مني. لكن أخاك ربما ينتظر دائمًا دجاجة أو حمامة.

لم ترد عليه سوسو. بل تمددت على بطنها فوق الفوطة التي جلس سليمان على طرف منها. أخذت تفرغ السيجارة من محتوى التبغ بشكل سري. ثم ملأتها وأشعلتها له. وقالت إنها الآن مطمئنة لأن لا أحد استطاع أن يراها. لا أحد من معارف أبيها. لكن الرائحة عندما انتشرت في الفضاء رأى سليمان فتاة شقراء تقترب. كانت متكئة تحت الحاجز الذي يفصل الطريق على البلاج. وقال سليمان لسوسو:

- انظري كم هي جميلة.

- انظر شفتيها المقلوبتين.. لا شك أنها تحب السحاق.

على كل حال، فأنا لا أحتمل ذلك الشذوذ. إذا راودتني أصفعها أو أغرقها في الماء.

- كيف عرفت ذلك؟ لا تكوني شرسة إلى هذا الحد.

- لست شرسة. لكنهن كن يتبعنني في إنجلترا أينما حللت وارتحلت. إنها قاعدة سيئة تلك.

وعندما اقتربت الفتاة الشقراء، لم تنتبه إلى سوسو، بل كانت نظراتها عالقة بشفتي سليمان الذي تدلت السيجارة من فمه. وقالت الفتاة الشقراء:

- هيلو. الجو جميل.

جلست بالقرب منهما على الرمل الحار. وفهم الاثنان أن الجو جميل جدًا. وأن الرائحة المنبعثة من المكان تعطره. وناول سليمان السيجارة لسوسو وقال لها إذا انتهت عليها أن تعيدها له. لكن سوسو لم تفعل. بل وجدت الفتاة ذات وجه بريء. وهي بعيدة كل البعد عن أن تكون سحاقية. وناولتها السيجارة، فتلقفتها هذه الأخيرة بلهفة، وهي تقول شكرًا. ثم أضافت بعد أن جذبت نَفَسًا عميقًا اهتزت له رئتاها:

- إنه جيد. لكن عندنا أحسن منه.

- أين؟

- في البيت.

- هل تسكنين وحدك؟

- لا.. مع مارييطا، صديقة من فنلندا وتامارا من السويد نسكن بيتًا في درب صنديو. هل أنتما من هنا؟

قالت سوسو:

- نحن من الدار البيضاء. إذا شئت فأنا من هنا. أسكن هناك.

وأشارت بيدها حيث توجد الفيلات.

لكن الفتاة الشقراء لم تستمع لها. كانت تهتم بسليمان وكانت تنظر إليه بإعجاب شديد. ولاحظ سليمان ذلك. ورأى أن الشبه كبير بينها وبين ثريا. في ملامح الوجه وفي نحافة الجسم، وحتى في نظراتها الذكية الهادئة. وحاول أن يسترجع صورة ثريا. لكن الفتاة الشقراء أعادت خياله إليها عندما ناولته السيجارة التي أوشكت على الانتهاء. وشعرت سوسو بنوع من المضايقة. وقالت لسليمان بأن هذه الفتاة ثقيلة الدم. وأجاب سليمان بأنها جميلة وبريئة. وسألته سوسو:

- هل يمكنك أن تنام معها؟

قال سليمان:

- ممكن. إنها مثل ثريا.

- سأضطر إلى الغضب إذا عدت إلى تكرار ما قلته الآن.

- لماذا سألتني؟ نحن لسنا متزوجين.

وقفت سوسو في انتفاضة قوية وتوجهت إلى الماء بسرعة. لاحظت الفتاة ذلك، وسألت سليمان عماذا كان يدور بينهما. وأجاب سليمان: لا شيء.

وقالت الفتاة:

- هل هي صديقتك؟

- ممكن.

- أستدعيكما لتدخين حشيشنا. درب صنديو ليس بعيدًا. إننا نعاني من الملل وحدنا. خصوصًا تامارا، الشديدة الانفعال.

وقال سليمان:

- لماذا تعاني صديقتك تامارا من الملل؟ هل هناك داع إلى ذلك؟

- لا أدري. لكننا جميعًا نعاني من أشياء. وأنت؟ هل تعاني من شيء؟

- أنا أعاني من ثريا. وأحيانًا أعـاني مـن شيء آخـر، مـن وجود هـؤلاء البورجـوازيين مـثلًا، إنهـم يكثـرون، ينمـون، ينتشرون ويحقدون.

- أنت مثلي إذن، أنا لا أحب عائلتي. إنهم بورجوازيـون كثيرًا. منذ سنتين وأنا أسافر. أحيانًا يرسلون إليّ بعض النقود. تامـارا كـذلك. ماريبطـا أيـضًا. كانـت في الـسجن. لأنهـا فوضوية. وصديقتك هل كانت في السجن هي الأخرى؟

- لا يمكـن، عنـدنا لا نـدخل الـسجن بالـسهولة التـي تتصورينها. خصوصًا إذا كان الإنسان من طبقة معينة.

- شيء غريب.

- نعم. وسوسو لها فخذان جميلان، هذا مـا أحبـه فيهـا. علاوة على أنها تتقن المضاجعة بشكل جيد.

- هل تحب ذلك كثيرًا؟

- ماذا؟

- النكا (...).

- آه أحيانًا. إذا راقت لي المرأة التي سـأفعل معهـا ذلـك. مثلًا أنت. شفتاك وعيناك. كل هذه الأشياء توحي بالبراءة. لا شك أنك في الفراش ممتازة.

- لا أدري. لكنك لو عرفت تامارا لما عدت تهتم بي. ألا تغار صديقتك؟

- ممكن. ولكن ما هي الغيرة؟ يجب أن نسألها عن ذلك. ونادى سليمان على سوسو فعادت تجري نحوهما وقد ابتلّ جسدها. كانت تضحك وقد نسيت غضبها الأول. قالت سوسو:

- متى نذهب عند هؤلاء؟

- اسأليها بنفسك. ليس الآن على كل حال. سأذهب لأرى خالتي. سأتغدى وسنلتقي فيما بعد.

وقالت سوسو للفتاة الشقراء ذلك، وملأوا سيجارة ثانية. ووافقت الفتاة الشقراء على أن يلتقوا بعد قليل في درب صنديو. ثم قالت سوسو لسليمان:

- إنها ليست جميلة.

وقالت سليمان: لكنها بريئة؟

- هل تريد أن تنام معها؟

- لا أدري. لقد سألتني عن ذلك قبل لحظات.

- أريد أن أعرف فقط.

- يمكنك أن تعرفي ذلك فيما بعد.

وهي تنفث الدخان في وجهه:

- معك حق. على الإنسان أن يحاول معرفة الأشياء فيما بعد، عندما تقع.

6

كانت غرفة مستطيلة يُصعد إليها عن طريق سلم حجري عتيق يكاد يتحطم، سلم حجري متآكل ضيق، ومظلم. وتحت، تسكن عائلة من حاحا، وهي قبائل مشهورة باللواط والانطواء على النفس وحتى غناؤها متميز بتلك الأصوات الرقيقة المتتالية، والتعاريج الطويلة النحيفة ذات النفس الدقيق الحاد. وقد سأل سليمان الفتاة الشقراء كاري، ما إذا كنّ يجدن مضايقة من طرف العائلة تحت، لكن ماريبطا أجابت:

- إنهم طيبون وفقراء. وأحيانًا يصعد الأب العجوز ليقدم لنا الحريرة، ويدخن معنا بعض الكيف ثم ينصرف لأنه لا يتكلم الإنجليزية.

وقالت تامارا:

- إن زوجته مريضة بالسل ويبدو أنه ليس للعائلة مرحاض. فقد رأيت الزوجة تقضي حاجتها ذات مرة في فناء النار.

وقالت سوسو عندما رأت الطبلة موضوعة في زاوية من الغرفة:

- من يتقن الضرب على الطبلة؟

وبالرغم من أن الموسيقى كانت تنبعث من مانييطوفون فوق الحصير، فإنه يبدو ألا أحد كان يستمع لها. وتناولت ماريبطا الطبلة وقدمتها لسوسو، لكن هذه الأخيرة رفضت ودفعتها بيدها، فتحركت ماريبطا على عجيزتها، دون أن تقف، إلى الخلف واتكأت على الحائط. فتحت فخذيها ووضعت الطبلة بينهما. وذهب خيال سليمان بعيدًا. في حين أخذت ماريبطا تضرب ضربًا رتيبًا على الطبلة، وقد تدلى شعرها الأشقر وظهر نهداها بلا سوتيان من تحت التريكو الشفاف الذي كانت ترتديه، فتشهى سليمان أن يضم ذينك النهدين الصغيرين المدببين. وقال سليمان موجهًا كلامه لتامارا:

- هل عندكم شيلوم؟

- نعم. ندخن بالسبسي أم بالشيلوم؟

قالت كاري:

- أفضل الشيلوم. (ثم لسليمان) هل تعرف كيف تـدخن بالشيلوم؟

- أعتقد ذلك.

- هل تعرف كيف تعمل لنا شيلومًا؟

- لا أعتقد.

التفتت كاري خلفها. وأخذت تبحث عـن شيء دون أن تراه. ثم توقفت يدها فجأة، وأخرجت شيلومًا من مكـان مـا. نفخت في داخله، وتناولـت قطعـة خـشب صـغيرة وأخـذت تنظفه من الداخل.

وقالت كاري لتامارا:

- هل عندك سيجارة شقراء؟

دست سوسو يدها بسرعة بـين نهـديها وأخرجـت علبـة «أل. أم» وناولتها لكاري.

قالت هذه الأخيرة:

- ميرسي. أعطيها لتامارا تفرغها، وتهيئها مع الحشيش سأنظف الشيلوم. لقد أصبح مختنقًا.

كانت ماريبطا ما تزال توقع بعنف على الطبلة، وتضرب ضرباتها الرتيبة التي لم يصبح لها معنى إلا بعد جذب نفس أو نفسين عميقين من الشيلوم.

وكانت تستمع للحوار دون أن تشارك فيه. وبالرغم من أن هناك كوة صغيرة في الغرفة، فلم يكن من الممكن للضوء أن يتسرب إليها، لذلك بادرت ماريبطا إلى القول موجهة كلامها إلى سليمان:

- هل معك أعواد ثقاب؟

- نعم.

- أشعل الشمعات.

وقف سليمان بسرعة وتوجه إلى الشمعات وأشعلها، وعاد بنفس السرعة ليجلس على الحصير في مواجهة كاري ذات الشفتين المقلوبتين. كان يشعر بأنه يجب أن يملكها عاجلًا أو آجلًا. وكانت نظراتها الموجهة إليه مغرية. لكنها كانت تنقل نظراتها أحيانًا إلى سوسو فتخاف منها، لأن سوسو تبدو قوية وعنيفة وشرسة، لمجرد أنها مغربية. وفي الواقع لم

تكن سوسو كذلك، لكن من يدري فبين فتاتين جادّتين كل شيء محتمل.

أخذت كاري تملأ الشيلوم بأناة، في حين حوّل نظراته إلى ماريبطا وقد اشتدّ ضربها على الطبلة، لم يعد في إمكانه الآن رؤية وجهها، فقد غطّاه الشعر الأسمر الجميل. وبعد الضرب السريع والمتوالي على الطبلة، توقفت فجأة وحركّت رأسها، فعاد شعرها إلى الخلف. ومرّت بظهر كفها على وجهها وعلى جبهتها موهمة نفسها أنها تمسح العرق. ثم بدأ الشيلوم يدور، وعندما كان دور ماريبطا تناولته، وجمعت يديها كما لو كانت ستقدم تحية آسيوية.. كان الشيلوم بيديها، وقالت:

- بامبولي سيبا شنكار..

كان ذلك طقسًا يجب ممارسته قبل البدء في التدخين، ويبدو أنها أخذت هذه الكلمات من الهند. لم يكن الآخرون يعرفون معنى هذه الجملة. ولكنهم، جميعًا، تعلموها بصعوبة. وأخذوا يفلظونها قبل البدء في التدخين. وقالت ماريبطا:

- كان صعبًا عليّ أن أعثر على مثل هذه الأشياء عندما كنت في الهند. إن المغرب جميل.

وقالت سوسو:

- كيف كنت تعيشين؟ أستغرب كونك لم تموتي جوعًا..

- لا يمكن للمرء أن يموت جوعًا أبدًا. كنت أشتغل مع الرهبان الهنود في الجبل. أجمع الأعواد وأساعدهم في إشعال النار. وكانوا يقدمون لي ما تيسر من الطعام. لكن أغرب ما وقع لي لم يكن في الهند إنما في أفغانستان.

وقالت كاري:

- لقد حُكي لي أن المرء في أفغانستان عليه أن يصنع قانونه الخاص. عرفت شابًا هولنديًا، قال لي إنه ظلّ يتجول مئات الكيلومترات ببندقيته. لقد كان يصنع قانونه.

وقالت سوسو:

- فيري سترينج!

- ليس غريبًا ولا أي شيء. إنه الواقع.

ومدّت تامارا يدها إلى المانييطوفون، فسمعت موسيقى دافئة وهادرة في نفس الوقت.

وكان سليمان إذ ذاك منكبًا على الشيلوم، يجذب منه النفس تلو النفس. وأخذ يفكر فيما عساه يكون موقف ثريا لو كانت هنا الآن. وتوصل بسرعة إلى نتيجة: إنها ولا شك

ترفض هذا الوضع الإنساني المنحط. فهي لا تحب عالم خشش، وتود دائمًا أن تبقى بكامل وعيها، حتى تنظر إلى العالم نظرة سليمة. وقال لنفسه إنها على حق وإنه كذلك يؤمن بها. لكن، في نظره، ليس هناك أي مانع للدخول في تجربة جديدة، شرط ألا يستمر فيها. سينتقل إلى أخرى. ومن الممكن، حتى لو أنه استمر فيها، فلن يكون هناك أي خطر. إن خالته مثلًا تتناول المعجون باستمرار.. وأحيانًا تقيم وصديقاتها حفلة «رأس حانوت»، حيث تجتمع النساء ويهيئن الشاي، ويوقعن على الصينية، ويغنين وهن متربعات على الأرض، ويتحدثن غالبًا عن الرجال بتحفظ. وبعد تناول رأس الحانوت، لا يصبح هناك تحفظ، بل يبدأ الحديث عن الفروج، بشكل علني، تعقبه تأوهات وارتخاء وفتح الثوب عن الصدور، ومد الأفخاذ فوق الأرض، وتعرية السيقان. إنها لحظات سعيدة ولا شك، لكنه مع ذلك لا يريد أن يتورط في شيء من هذا. إنه يفكر دائمًا في أن يبقى في كامل وعيه. وقال لماريبطا:

- إن كاري بيضاء أكثر من اللازم.

وقالت تامارا:

- نحن لا نحب البحر. نحب أن نتحدث فقط ونتنـاقش وندخن.

وقالت سوسو:

- أنا أيضًا أحب هـذا. حتـى أن أبي يخـشى ألا أعـود إلى الليسيه هذه السنة، خصوصًا وأنها سنتي النهائية. هـو يتمنـى أن أصير محامية. لكنني أنا شخصيًا أريد أن أعيش.

وقالت كاري:

- شيء جميل. لكن أعتقد أن الإنسان عليه أن يعمل لكي يكسب حياته، لقد أصبحت أفكـر في هـذا جيـدًا الآن. هـذه الحياة لا يمكن أن تدوم. لا أدري. إنه مجرد افتراض.

وقال سليمان:

- سأنام معكن جميعًا.

وقالت سوسو إن عليه أن يخجل. وقالت تامارا:

- أرى صرصارًا فوق الحائط.

وقالت واحدة:

- إني أرى قرون استشعار الصرصار.

قالت سوسو:

- ذلك مجرد وهم.

وتوجهت إلى سليمان:

- لم نأكل. بعد الحشيش يجب أن نأكل.. ويبدو أن عليّ أن أنصرف. ينتظرني طعام طيب في البيت. كان سليمان قد ارتخى، واتكأ على حائط الغرفة المستطيلة، ومدد قدميه فوق الحصير. انتهزت كاري هذه الفرصة. فتمددت ووضعت رأسها فوق فخذي سليمان. فتدلى شعرها الأشقر وغطى حوضه.

وقالت كاري:

- إني أشعر بفأر تحت أذني.

قالت ماريطا:

- لا.. ماذا يفعل بين فخذيه. يمكن أن يكون صرصارًا.

- لا أشعر بقرني استشعاره.

قالت سوسو بالعربية:

- إنهن مبتذلات.

وأجابها سليمان:

- لا تكوني حاقدة إلى هذا الحد. يبدو أن الجوع أثّر عليك. يمكنك أن تنصرفي إلى بيتكم.

- لن أخرج، حتى تأتي معي.

- لماذا؟

- سنفعل الحب في الغابة أو في أي مكان. في الحديقة أو في سرير والدتي. لا يهم. إني أشتهيك الآن.

- سنفعل ذلك فيما بعد.

- لا.. الآن.. لكن ليس أمامهن.

وكانت الأخريات قد دلين أهدابهن، وارتخى الشيلوم في يد مارييطا. وأخذ سليمان يتلهى بشعيرات خفيفة على حنك كاري، فشعرت هي بالدفء وأغمضت عينيها. ولم يكن أحد يستطيع أن يعرف ما إذا كانت ما تزال تحس بالفأر تحت أذنيها بين فخذيه. وأصاب سوسو نوع من الجنون. فأخذت تلقي بثوبها.. وأصبحت عارية تمامًا، وتمددت فوق الحصير على بطنها. ظهرت علامة على ظهرها فصرخت تامارا:

- فأر فوق ظهرها. فأر هندي.

وقالت كاري:

- لا. الفأر هنا. هيئي شيلومًا آخر.

ثم بعد صمت:

- بامبولى بامبولى شيبا شنكار.

كان سليمان يرى كثيرًا من الألوان والصور، وأحسّ بأن ملاكًا صغيرًا يوجد الآن بين أحضانه. أحب ذلك واستعذبه. ولم يعد يفكر في ثريا، وظلت سوسو في وضعها ذاك. وكانت الموسيقى ما تزال تنبعث من الآلة التي توجد بالقرب من الجدار. وشعرت أن الحصير يدغدغ جلدها الناعم فاستعذبت ذلك ونسيت الغداء الطيب التي ينتظرها. وكانت تامارا تتأمل الفأر الهندي بتعجب كبير فوق ظهر سوسو. وأخذت تضحك بهستيريا. في حين ارتخى الجميع. وكان رأس سليمان يتحرك يمينًا وشمالًا، وأصابعه تلعب بشعر الملاك الأشقر الذي يوجد بين أحضانه. كان النور لا يكاد يتسرب من الكوة الصغيرة بالجدار. وكانت إحدى الشمعات قد انطفأت فلم يكلف أحد نفسه البحث عن شمعة أخرى وإشعالها. وتحرك سليمان. رفع رأس الملاك الأشقر ووضعه برفق على الحصير، فصدرت عن الملاك أنّة فيها ضعف أنثوي ظاهر وحنين إلى شيء مجهول. تمدد بالقرب منها، واحتضنها بين ذراعيه. ظلّ في هذا الوضع لحظات. ثم أحسّ رجلًا ترفس مؤخرته. كانت

سوسو عارية منفوشة الشعر، تنظر إليه نظرات غريبة. بدت له مثل ساحرة ماكرة. أمسك بيدها وجذبها رغم تمنّعها. ومددها بالقرب منه. ألقى بذراع عليها وبذراع أخرى على الملاك الأشقر. فهدأت سوسو وكان الجميع يشعرون بأنهم في عالم سحري عجيب. استعذبوا ذلك، واستسلموا للهدوء والراحة. وكانت الموسيقى تتشوّه، ترتفع، وتنخفض، وتزعق، وتعذب. كانت تعبّر عن كل شيء، ولا تعبّر عن شيء إطلاقًا..

7

كان هواء المساء منعشًا. والبحر يبدو عن يمينها أبيض ناصعًا تمامًا. فقد أثر ضوء القمر على سطح البحر حتى صار يعكس أشعة تغشي العيون، وبدا مثل مرآة عريضة، صافية. فأحسّ كريمو بانتعاش كبير، خصوصًا وأنه لم يشرب كثيرًا من الخمر، وكذلك الشأن بالنسبة لسليمان، فلم يكن قد تناول الكثير من الخمر لشعوره الآن بحاجة إلى المزيد حتى يرى الشاة حمارًا.

وقال سليمان:

- كيف كان انطباعك عن خالتي هذا المساء؟

- إنها تطهو جيدًا.

- لا أقصد الطعام. أقصد أشياء أخرى. شخصيتها مثلًا.

وكان كريمو يسبق سليمان بخطوات، وأجاب:

- لا أعرف في النساء كثيرًا. أعتقد أنها لطيفة لكنها لم تحبني كثيرًا.

- أنت مخطئ. أنت لا تعرفها جيدًا. أنت من النوع الذي يروق لها.

- لا يهم على كل حال أن أروق لها أو لا أروق. فهي في سن والدتي.

- عجيب!

- ماذا؟

- لا شيء. منظر القمر، والموسيقى المنبعثة من بعيد.

- آه! فهمت. سترى كيف أنهم يحتفلون بنا، وستتفرج الليلة، منذ كم من الوقت لم تحضر حفلة جيلالة؟

- لا أذكر بالضبط. على أني أود أن أتفرج هذا المساء. هل البراريك معزولة عن الدور المبنية بالآجر كما لو كان بها جذام.

- مثلما هو الشأن في الدار البيضاء. إن الناس يأكلون وينامون ويتغوطون في براريكهم.

- مثل الحيوانات.

- وأكثر. الحيوان يتغوط أحيانًا في الخلاء.

- إن الدولة تقول إنها ستقضي على هذه البراريك في نطاق التصميم الخماسي.

- قالت ذلك في جميع التصاميم السابقة.

وكان كريمو ما يزال يتقدم سليمان وخفض صوته، فالحيطان لها آذان. وهو لا يريد أن يبيت ليلته في مركز الشرطة، أو يقبر نهائيًا فيه، منسيًا مثل عنكبوت في بيت مهجور.

وقال لسليمان وقد أصبح وسط خلاء غير فسيح:

- انظر البراريك هل تراها؟ إنها تلمع تحت ضوء القمر، هل ترى اللهب المتصاعد؟ هناك تقام الحفلة رغم أن الصوت يأتي من ناحية أخرى، ألا تعتقد أنهم سيحتفلون بنا؟

- لا أدري. على أني أتمنى أن تكون الحفلة في العراء وليس داخل براكة من البراريك. وهكذا لن يستطيع أحد منعنا من التفرج.

كانت أصوات البنادير ترتفع كلما اقتربا من اللهب المتصاعد، وكان صوت الناي القصبي المتحشرج لا يكاد

يُسمع، وقد غطت عليه أصوات البنادير، ودكات الأقدام فوق الأرض، وصيحات بعض النساء اللواتي ربما اشتدّ بهن «الحال». وقال كريمو:

- الجو ساخن هناك.

- نعم. أعتقد ذلك. إذا شمّوا رائحة الخمر هل يؤذوننا؟

- لا.. هل أنت أحمق؟ أنت لست ذاهبًا إلى مسجد. ألا تعرف أن الحفلة ليست دينية؟ هناك من الراقصين من يكون سكران الآن.

- أتمنى ذلك. أتمنى أيضًا أن نجد من يعطينا الكيف حتى نرحل أكثر.

- أنت تعرف أني لا أحب ذلك.

وعندما بلغا البراريك، كان عليهما أن يهتديا بضوء القمر في الدروب الترابية الصغيرة المتعرجة. كانت هناك حفر كثيرة. ولكنهما استطاعا أن يميزا أغلبها فتجنباها، وأحيانًا كانا يسمعان هرير كلاب مربوطة داخل البراريك. وعندما رأى سليمان ثلاثة كلاب متجمعة في فسحة صغيرة مظلمة، قال ذلك لكريمو وأبدى تخوفه فأجاب هذا الأخير:

- يجب ألا تخاف أكثر. هذه الكلاب لا تؤذي.

- إنها ثلاثة.

- ولو.

- لا أريد أن أصاب بداء الكلب.

- لا تكن خوّافًا. سترى كيف أن الكلاب الوديعة باستطاعتها أن تخلي لنا الطريق دون أن تؤذينا.

- سنرى ذلك.

وعندما صارا على مقربة من الكلاب. كانت هذه الأخيرة متجمدة في الفحة الضيقة. لا تبدي أي حراك. وهرَّ كلب أسود وتراجع إلى الخلف. لكن الآخرين لم يتحركا. اجتاز سليمان وكريمو الفحة بقليل. وشعرا أنهما بأمان. وعندما أراد أحدهما أن يقول للآخر بأنهما نجوا، قفز كلب آخر رابع، قفزة عدوانية على كريمو، فتحرك هذا الأخير حركة مضادة وضرب الكلب على بطنه ضربة آلمت قدم كريمو بقدر ما آلمت الكلب فنبح وفرّ وهو يعرج ناجيًا بنفسه. وقال كريمو:

- كيف تجدني؟

- إنك شجاع. لم أكن أعتقد فيك ذلك.

- انظر كيف أنه يتلوى ويعوي.

- أرى ذلك. أخشى أن تتبعنا الكلاب الأخرى.

- لا أعتقد.

وسارا في الدروب الترابية، بين البراريك الرابضة في أمان، باتجاه الإيقاع المنبعث. وكانا كلما اقتربا من المكان، انتشر الضوء حولهما، شيئًا فشيئًا. وقال سليمان:

- بصراحة يا كريمو إنك تشبه سي أحمد.

- في أي شيء؟ إني لا أعرف هذا الشخص.

- أنا أيضًا لا أعرفه لكنه دخل حياتي. صار صديقًا لي، لأنه دخل حياة خالتي.

- أنت لا تعرفه وتقارنني به.

- ليس ذلك مهمًا، لا بدّ من إيجاد مقارنات وهمية أحيانًا.

- هل هو أميّ؟

- لا أدري.

- هل هو عجوز أم شاب؟

- لا أدري.

- هل هو عيساوي أو جيلالي؟

- ذاك شأنه. يبدو أننا اقتربنا، وستفرج اليوم كما لم يحصل لنا أبدًا من قبل. أخشى أن يشموا فينا رائحة الخمر فيرجمونا. إن هؤلاء الناس متعصبون دينيًا.

- سترى كيف أنهم جميعًا سكارى ومحششون.

- سنرى ذلك.

وعندما انحرفا جهة اليمين، أصبحا مباشرة في وجه وسعة كبيرة. كانت غاصة بالناس واللهب يتصاعد وسط حلقة الراقصين والجالسين على التراب والواقفين وهم يتزاحمون بالأكتاف في هذا الجو الصاخب الشديد الحرارة.

مشيا بخطوات بطيئة حذرة. التحقا بالوسعة. لم ينتبه لهما أحد. بل أفسحوا لهما مكانًا دون حتى أن يلتفتوا لهما. إلا أن رجلًا صدمته رائحة الخمر فغير مكانه دون أن يكلف نفسه عناء معرفة مصدر الرائحة. وكان هنالك حوالي سبعة أشخاص، ثلاثة رجال وأربع نساء وسط الوسعة يدكون التراب بأقدامهم بعنف، وأياديهم تقوم بحركات هستيرية في الفضاء. وكانت هناك امرأة ثامنة ممددة على التراب، وتبدي حركات كأنها في النزع الأخير. وقد أصابها الوهن من شدة الرقص واشتداد «الحال» بها. لم يكن يهتم بها سوى رجل يمكن أن يكون زوجها. كان يقرب من أنفها بصلة، ويطلب من عازف على البندير أن يغير طريقة الإيقاع حتى لا تموت هذه المرأة المسكينة، فما يعزفونه الآن ليس هو (حالها).

وقال كريمو:

- ما أروع هذا العزف!

قال سليمان:

- لكن تلك المرأة المسكينة ستموت.

- إذا عزفوا لها (حالها) فسيسقط الآخرون في مكانها. الأفضل التضحية بواحد بدلًا من سبعة.

- لا يمكنهم أن يسقطوا لأنهم ليسوا صادقين.

- ومن أدراك؟

- أعرف ذلك.

واقترح كريمو:

- الأفضل أن نبتعد من هنا. إني أرى شخصًا يدخن كيفًا. نذهب بالقرب منه؟ من أجلك أنت فقط. أما أنا فلا أستطيع أن أكون شاربًا وأدخن الحشيش في نفس الوقت. ألا تعتقد أن ذلك يقضي على حياة الإنسان بسرعة؟

- لا أدري. لكننا سنلتحق بالرجل فورًا.

ثم غادرا مكانهما، وأخذا يدوران حول الناس. لكنهما لم يعثرا على الرجل إلا بصعوبة فائقة. كان متربعًا فوق التراب، وسبسيه في يده وهو يهزّ رأسه مع إيقاعات البندير وبفعل المقدار الذي تناوله من الكيف.

وقال كريمو لسليمان:

- هل تتقدم وتطلب منه؟

- تقدم أنت.

- لا.. أنت.

في الأخير تقدم كريمو، وسط الأجسام المتزاحمة، وجلس بالقرب من الرجل على التراب. تبعه سليمان، وجلس إلى جانبه. وطلب من الرجل عندما أشعل سبسيًا أن يمده بنثرة صغيرة. فالتفت هذا الأخير، وقال له بأنه يمكن أن يشتريه، وبأنه حصل عليه بعرق جبينه. فاشمأز كريمو من هذا الجواب ولكنه تمالك أعصابه:

- بع لنا إذا كنت تملك كمية لا بأس بها.

- هات درهمًا ونصف.

دسّ كريمو يده في جيبه وناول الرجل الدرهم والنصف. يبدو أن الرجل كان يتاجر في الكيف. وعندما رأى النقود دسّ يده في جيبه وأخرج كمية لا بأس بها وناولها إلى كريمو. أخذها هذا الأخير مسرورًا، وأعطاها لسليمان حتى يتبين ما إذا كان هذا الكيف من النوع الجيد أم هو مجرد سلعة رديئة. لم يكن سليمان يفهم كثيرًا في هذه الأمور، ولكنه فتح الكاغيد،

وأخذ يتأمل الكشيف الموجود داخله على ضوء النار المشتعلة وسط الدائرة. وبالرغم من أنه لم يفهم شيئًا، فقد قال كريمو:

- يبدو أنه جيد.

- كيف عرفت ذلك؟

- انظر. إنه يبدو أخضر.

- وإذا لم يكن جيدًا فكيف يكون؟

- أصفر.

- لا أعتقد.

- هو كذلك. يمكنك أن تثق بي. لست حشاشًا، ولكني أعرف ذلك عن طريق التجربة.

ثم طلبا من الرجل الذي باعهما كمية الكيف أن يعيرهما سبسيه. وبالفعل أعطاهما الرجل السبسي فملآ شقفين اثنين فقط. دخن كريمو شقفًا واحدًا بينما دخن سليمان الشقف الثاني. وقال سليمان:

- يبدو أن الليلة ليست ساخنة بما فيه الكافية.

أجاب كريمو:

- انتظر قليلًا. سوف تسخن الليلة.

وما إن أتمّ كلامه حتى أخرج رجل سكينًا طويلة حادّة وهو يجذب وسط الحلقة. كان الزبد يتطاير من فم الرجل، ورفع ثوب قميصه عن ذراعيه، تفل على السكين، وعلى ذراعه، ثم أخذ يضرب ذراعه بالسكين ضربات رتيبة وهو يدك الأرض ويرغي ويزبد. كانت ذراعه النحيفة تقاوم حد السكين، وبالرغم من ذلك فقد ظهرت خطوط من الدم حمراء على ذراعه، فزغردت بعض النسوة. إلا ن رجلًا آخر تقدم من الحلقة وانتزع السكين من الرجل حتى لا يقتل نفسه تلبية لنداء هيجان أعمى. وقال كريمو: يكفينا الليلة. يجب أن ننصرف.

وقال سليمان: ذلك رأيي. سنغادر هذه البراريك قبل أن نتعرض لبعض المتاعب.

وغادرا الحلقة فورًا. مضيا وسط الدروب الترابية، اجتازا البراريك. وبعد قليل من الوقت كانت أصوات البنادير قد خفتت، ووجدا نفسيهما وحيدين في الطريق الشاطئية. كانت بعض الأشباح الآدمية تتحرك على البلاج مثل شياطين خرجت من البحر. وقال سليمان:

- ما رأيك يا كريمو أن ننزل إلى تحت وندخن؟

- ليس معنا سبسي.

- نملأ السجائر.

وأجاب كريمو:

- إني أفضل، في الواقع، أن أشرب.

- لا يمكنك أن تجد خمرًا الآن.

- أعرف أين أجدها، إنها تُباع عند البحارة. ثمن الزجاجة مرتفع قليلًا، لكن الشراب رائع في نهاية الليل، قرب البحر...

اقترح كريمو أن يمشيا حتى المرسى، حيث ترابط بعض مراكب الصيد العتيقة. هناك، يوجد مجموعة من البحارة يسكرون أو ينامون، أو يفعلون أشياء أخرى فوق الصخور.. اجتازا مكاتب الجمارك ومرّا فوق قوس حجري، وعندما بلغا بعض الصناديق الفارغة المتراكمة، أمر كريمو سليمان أن ينتظر هناك. ظلّ سليمان واقفًا في مكانه، يتأمل السور الضخم القديم الذي بناه ملك معجب بنفسه. أخرج سيجارة وذهب ليجلس على حافة المرسى، ودلى قدميه تحت. كانت رائحة كريهة تنبعث من الماء، ينقلها الهواء إلى أنفه فيزكمه. ثم وقف وذهب ليجلس بعيدًا عن الرائحة الكريهة. وسمع كريمو ينادي عليه، وبجانبه شخص قصير القامة يضع طاقية فوق رأسه. اتجه نحوهما سليمان، وصدمت قدمه اليمنى قطعة حجر فكاد أن يسقط. وسمع سليمان الرجل يقول لكريمو:

- هل هو هذا؟

- نعم.

وسار الرجل أمامهما، وسبقهما بقليل، ثم قفز إلى أحد المراكب، ورأياه يسحب حبلًا متدليًا في الماء.

كان في نهاية الحبل سطل من الميكا. وأخذ الرجل يُخرج زجاجات البيرة باردة من السطل، وسمعاه يقول: كم واحدة؟

قال سليمان نيابة عن كريمو: بيرتان وزجاجة نبيذ.

ثم ابتعدا عن المركب، ولحق بهما الرجل: أنتما تعرفان أن بيع الخمرة بهذه الطريقة ممنوع.

وقال لكريمو: لو لم أكن أعرفك ولد الناس.

وقال كريمو: أشكرك.

دفعا له الثمن. ومشيا نحو بعض الصخور القليلة التي تكوّن كهوفًا واقية، وتساءلا أين يمكنهما أن يشربا هذه الزجاجات. واقترح سليمان أن يشرباها على رمل الشاطئ.

وقال كريمو:

- يمكن أن تكون هناك دورية.

- نجلس تحت السور.. ثم إنهم جبناء لا يمكنهم أن

ينزلوا في مثل هذا الوقت إلى البلاج. إنهم يخافون على حياتهم من أجل أولادهم ونسائهم.

- لكنهم أحيانًا ينزلون ليصطادوا اليربوع.

- عندما يكونون قد فقدوا عقولهم.

وتلافيًا لأي شر قررا أن يبتعدا قليلًا. وهناك انضما إلى مجموعة من الناس كانت مخيمة هناك، وقد سكروا قبلهما. وكانت فتاة أوروبية عارية تمامًا تسبح في الماء، والآخرون يصدرون أصواتًا قبيحة وشهوانية.

وقال سليمان: عندما نسكر ونتحشش، نلتحق بها ونفعل لها ذلك.

أجاب كريمو: سنرى ذلك فيما بعد.

جلسا على التراب. وحاول كريمو أن ينزع سدادة الزجاجة بأسنانه فنجح في ذلك.

8

درب طويل وضيق، أمام سليمان. الجدران قديمة مهترئة، والنوافذ ذات الألوان الباهتة تكاد تسقط عن الحيطان. مائلة، متشققة. وبعض الأبواب لا تكاد تُدخل حتى جسم طفل صغير. أما الشارع الضيق فكان مليئًا بالحفر، وعلى جانبيه حوانيت تعرض بضائع غير ذات قيمة. وخلف سليمان، كانت خالته تراقبه من فجوة بين ضلفتي الباب. وقالت «الله!» عندما تعثر ولم يسقط. كان هاجس داخلي يقول له بأن خالته تراقبه حتى يختفي عنها. انحرف قليلًا وبدا له المقهى الشعبي غير مكتظ. على الأقل في الخارج. هناك شخصان جالسان أمام كأسي شاي لا يبدوان فارغين. أو هما فارغان لكن النعناع

يملأهما وقد اسودّ. عندما وقف أمام المقهى، أخذ يتأمل في الداخل المظلم، رغم الشمس المحرقة، وفكر في أن يدخل أو ينتظر سوسو. توقف لحظة ثم دخل وجلس في زاوية وأعطى ظهره للتليفزيون المثبت في زاوية أخرى. كان بعض الناس متفرقين حول طاولات قليلة مزدحمة. ولم يكن المقهى شديد الحرارة، بالرغم من أن الجو في الخارج حار. أثارت انتباهه فتاة هيبية مكتنزة وجميلة تقتسم وصديقها القذر إسفنجة واحدة ويتناوبان على شرب كأس شاي واحد. كانت الفتاة جميلة حقًا. وفكر أنها لا شك ابنة أسرة غنية وأنها تفتعل هذه الحياة لمدة قصيرة على سبيل التجربة وتمنى لو يتحدث إليها. لكن ذلك لم يكن في إمكانه الآن. إذ لم يكن عنده استعداد لمحادثة أي شخص. وقال إنها خير من ثريا، ومتحررة ومغامرة، وتسافر. وحرّك رأسه ليلتفت إلى جسم إنسان يقف عند كتفه. وقال للإنسان: هات كأس شاي. وعندما ذهب الإنسان لاحظ سليمان أنه يلبس فردتي حذاء مختلفتين، والوسخ قد علق بعرقوبي قدميه، وقد ارتفع السروال وكشف عن ذلك. وعاد الإنسان بكأس الشاي بسرعة وعندما شرب منه رشفة وجد أنّ السكر ينقصه فالتفت ليجد وراءه امرأة موشومة اليدين والوجه، وقال لها أن تأتيه بالسكر ففعلت. ويبدو أنها ربة المقهى. حرّك السكر وتمنى الفتاة المكتنزة الجميلة، هذا إذا

صدقت تخميناته ولم تكن مصابة بالزهري. على كل حال هـذا هـو الامتيـاز الوحيـد الـذي تنفـرد بـه ثريـا وسوسـو ليـستا مصابتين. ثم رأى جسمًا آخـر أروع في الخـارج، كـان يتحـرك ويتلوى مثل جسد أفعى، ولم يكن هـذا الجـسد سـوى جـسد سوسو. كانت بشرتها العربية واضحة، رغم أنها ترتـدي مثـل الهيبيات. وسمع من خلفه رجل يقول: «الله على حليوة». أمـا ما لم يـسمعه فكـان كـما يـلي: قـال رجـل ملفـوف في جلابتـه لصديقه: كم تفعل لها؟

وأجاب الآخر: ستة.

قال صديق لهما: وأنا عشرة.

قال الملفوف في جلابته: لا تبالغا، لنتكلم بصراحة.

وقال رجل خلفهم وسبسيه في يديه، وقـد لعـب الكيـف برأسه: ذاك هو المسخ؟ عشْ رجبًا ترى عجبًا.

وقال سليمان: كيف قضيت البارحة؟

لم تجبـه سوسـو، ولكنهـا كانـت تنظـر إلى الفتـاة الهيبيـة الجالسة بالقرب منها. وقالت بدلع مغر:

- هنا على الأقل لا يمكن أن يكتـشفني أبي. هـذا المكـان تنقصه موسيقى.

- لكن هناك تليفزيون.

ووقف الإنسان وراءهما. فقالت سوسو دون أن تنظر إليه بأن يأتيها بشاي أخضر. وجاءها الشاي الأخضر فأخرجت علبة سجائر وناولت سيجارة لسليمان. وسمع سليمان مذيع التليفزيون يذيع بلاغًا من وزارة الداخلية. وقال لسوسو أن تسمع فقالت إن ذلك لا يهمها. كان المذيع يتحدث عن مجموعة من الرجال المسلحين الذين هاجموا بعض الثكنات العسكرية قرب جبال الأطلس. وسمع المذيع يذكر بعض أسماء الأماكن: مولاي بوعزة، وتنغير. وقالت سوسو بالفرنسية: هل هي ثورة؟

قال سليمان: نعم.

قالت سوسو: ذلك ليس جيدًا.

قال سليمان: من قال لك ذلك. أبوك أم أمك؟

قالت: أنا.

قال سليمان: من الذي بات مع أمك ليلة أمس؟

- عزيزي. لا تكن شريرًا.

- لست شريرًا. اسمعي ماذا يقول المذيع.

- لا يعجبني. أحب في التليفزيون فقط برامج الأوروفزيون المنقولة عن إسبانيا.

كان المذيع قد كفّ عن ذلك، وجاء بعده معلق يطعن في ليبيا بالدراجة، ويصف زعماءها بالصهاينة.

وقال سليمان:

- أنا أيضًا لا أحب التليفزيون.

- من الأحسن أن نتفق على شيء.

- أو لا شيء.

- إني لا أفهم كلامك.

- ليس ضروريًا أن نتفاهم. لقد قررت أن أسكت لحظة. ما رأيك أن تسكتي وتدخني.

- سأحاول أن أفعل.

كان الرجال الجالسون هناك قد نسوا سوسو بعد أن تمنوها للحظة وجيزة. وكان سليمان ينظر خارج المقهى ويرشف من شايه. لقد أصيب بنوع من الذهول. لم يكن هناك سبب لذلك. نسي نفسه نسي سوسو وسمعها تتحدث فالتفت إليها. لكنها كانت تتحدث إلى رجل آخر بجوارها يبدو أنه بحّار، وسمع الرجل يقول لسوسو:

- هل أعمر لك يا مادموزيل.

- ما كرهتش.. ميرسي.

ودفع لها الرجل السجي، فأخذه منها سليمان:

- ألا تخجلين؟ وأمام الملأ؟

- دعني أدخن.

وأعاد سليمان السبي للرجل:

- لا نريد أن ندخن شكرًا.

قال الرجل:

- طيب، دخن أنت. فوج على قلبك.

- لا. شكرًا. لقد جئنا لننتظر أحد أصدقائنا لا لنتحشش. هل تعرف؟ نحن لا نتحشش.

قال الرجل: اسمح لي.

وقال سليمان لسوسو وهو يقف:

- هيا قفي. سنغادر المكان فورًا.

سار أمامها. وكانت هي مشغولة بأزرار سروالها تنظر إلى الخلف وإلى الأمام. لم ينتبه لها أحد. فكأن عيون النساء خلف الحجاب لا تبصر شيئًا. في حين أن هذه العيون أشدّ انتقادًا. كانت تتبع سليمان وهي تمضغ شيئًا في فمها. ثم قفزت قفزتين لتتجنب حجرًا. وقالت امرأة ملفوفة في حايك، وقد نزل

الحجاب إلى أسفل أنفها فبدت كمومس محترمة:

- لو لبست مثلها. ألا تعتقدين أن جسدي يكون أروع من جسدها؟

أجابت الأخرى:

- إنها تمارس الرياضة. جسدها قوي.

- لكنها تنكـ(...) كثيرًا.

- من قال لك ذلك؟

- أعرف هذا النوع من النساء اللائي يأتين إلى مدينتنا الصغيرة.

- إنها ليست امرأة، ولكنها فتاة صغيرة، مكتنزة فقط.

- انظري طيـ(...)ـها.

قالت الأخرى وهي ترفع الحجاب قليلًا فوق أنفها:

- اسكتي. رجل وراءها.

وقال الرجل الذي خلفها: الله على الحياء.

وقال سليمان لسوسو:

سنذهب لنأكل السردين المشوي.

- ليس بي جوع، قالت.

- نشرب بيرة في البيجو - بار. ستكون لك شهية للأكل فيما بعد.

- لا أدخل إلى ذلك البار، لأن فيه بعض البحارة المكبوتين.

- إنهم طيبون. لا تكوني عدوانية.

جذبها من ذراعها. ودفع الباب المصنوع من دفتين على طريقة أبواب مقاهي القرن التاسع عشر في أمريكا. لم يكن البار كما توقعت، بل كان فارغًا ومظلمًا. أخذت تتأمل الرسوم على الجدران. أعجبت بها. وبالألوان الباهتة المختلفة. تخيلت أعماق البحار. فالرسوم توحي بذلك. وقالت سوسو:

- إن أستاذة الرسم في الليسيه ترسم مثل هذه اللوحات.

- لا شك أنها هي التي رسمت هذه الرسوم.

- لا أعتقد أنها تأتي إلى هنا.

- إلا إذا كانت في حاجة إلى رجل.

- أنت معتوه. هل تعتقد أن الرجال انعدموا في الدار البيضاء؟

- لا أدري.

(للجرسون):

- بيرتان باردتان. أدر الحاكي من فضلك. أم كلثوم لا أحبها.

دخل شابان وقد عريا صدريهما. وقفا إلى جانبها وطلبا خمرًا عادية. ألقى أحدهما نظرة على أسفل سوسو، وتلمظ بلسانه. أما الآخر فلم ينتبه لها. بل دفعها قليلًا بمؤخرته حتى كادت تفرغ كأس البيرة على ثيابها. وقالت بالنيابة عنه: «باردون». ولكنه لم يهتم لها مع ذلك. فاغتاظت وشربت كأسها جرعة واحدة. أما سليمان فأدخل يده بين نهديها وأخرج علبة السجائر. رأى البارمن الحركة فتمنى لو يفعل ذلك مكانه. ولكنه تذكر بأن هناك حاجزًا بينه وبينها، فانشغل بالنظر إلى زجاجات الويسكي القابعة فوق عينيه. وقال سليمان:

- لا بدّ أن شهيتك الآن تفتحت لأكل السردين.

- لا أدري. قالت.

- أنا أيضًا لا أدري. لكن من المؤكد أننا سنذهب إلى هناك. ادفعي ثمن البيرتين.

- ما معنى ذلك؟

- ادفعي من نقود أبيك؟

- لا بد أن أقتصد. أنوي أن ألتحق بلندن عندما أحصل على الباكلوريا.

- ما يزال أمامك دهر.

- أنت لا تحبني. إنك تتكلم بطريقة خبيثة.

- أنا أحب ثريا.

- يلعن دين أبوها.

ثم انسحب سليمان من البيجو - بار وتبعته سوسو وهي تدس بعض النقود في جيوبها. ومشيا في الشارع الرئيسي الضيق. ثم انحرفا يمينًا. ورأيا الناس يتزاحمون في البنك. ثم سارا في الساحة الصغيرة. وتمنى سليمان أن يجلس في الكافي دي فرانس. كان الإفريز مغريًا وتجمع الشبان والشابات وراء كؤوس الشاي والقهوة. يناقشون - من غير شك - كيفية العودة إلى أوطانهم، أو الاستمرار في الرحلة إلى العالم الفسيح. عالم الفقر والحب والحرية. ولم تكن ثيابهم القذرة تستطيع أن تخفي فتوتهم وجمالهم وطموحاتهم. كانوا يفعلون كل شيء بلا رقيب. ولعلّ أغلبهم لم ينه دراسته. ومع ذلك فآمالهم واسعة وحبهم للحياة كبير جدًا. تجاوزا المقهى إلى الكشك. ومرّا بالقرب من التياترو المتنقل. وقد تجمع حوله بعض النساء

المحجبات ينتظرن افتتاح العرض الأول الذي يحتوي على اسكتشات ساذجة ورقصة أو رقصتين من جبال الأطلس.

وقالت سوسو:

- هل دخلت التياترو؟

- لا أحب ذلك. أعرف مسبقًا ماذا يجري هناك.

- ثمن الدخول غير مرتفع. نصف درهم فقط.

- أعرف. ما يهمنا الآن هو أن نذهب لنأكل السمك ونتفرج على الصيادين. الحياة جميلة، أليس كذلك؟

- لا أدري.

- يجب أن تدري.

سارا باتجاه المرسى الصغير، وقد تركا خلفهما جموع الشباب يثرثرون على إفريز الكافي دي فرانس، وتركا خلفهما كذلك النساء يغتبن بعضهن البعض أمام التياترو. وتركا كذلك، الصيدلي التركي المهاجر والمصاب بشذوذ جنسي مبالغ فيه. وتركا الشارع الرئيس الضيق، والبيجو - بار، وأيضًا ذلك العالم المنزوي داخل الدكاكين والدور التي لا تدخلها الشمس، والتي تكثر فيها النميمة، والفقر، واللواط. وكان البحر..

رأى سليمان الطاولات المسودة بفعل زيت السمك والأوساخ، والكراسي الطويلة الممتدة بمحاذاتها. وقال:

- إذا كان الصيد متوفرًا اليوم، فالكمية ستكون بنصف درهم.

- لا أحب أن آكل هناك.

- إن أباك جمع ثروة لأنه كان يأكل طيلة حياته في أماكن مثل هذه. إنها قذرة، أليس كذلك؟

- لماذا تتحدث عن أبي دائمًا؟

- لأن اسمه يبتدئ بـ(بن).

- لا أفهم شيئًا. اسمع شيري، لا تكن قاسيًا.

ثم عانقت خصره، وضمّته إليها بكل قوة وعنف. وقالت وهي تضمّه:

- سأذهب معك إلى الجحيم. أرجو ألا تتحدث مرة أخرى عن ثريا تلك.

كانت المراكب موزعة على صفحة الماء، والشباك منشورة فوق رصيف المرسى. وهناك الصيادون الذين تجمعوا أو تفرقوا فوق هذا الشباك يرتقونها. وحول الطاولات الكثيرة تجمع الناس يلتهمون السمك المشوي بنهم كبير. وأعجب

سليمان بالأسوار القديمة التي تحمل مدافع قديمة كذلك. كانت مؤخرات المدافع الصدئة سميكة ومتدلية إلى تحت. في حين تصعد أفواهها جهة البحر نحو السماء. هذه هي وسيلة الدفاع الوحيدة التي كنا نملكها في السابق. وقال سليمان:

- انظري المدافع والأسوار.

- لا أعرف فيما تتحدث.

- ما لها؟

- جميلة.

- هل جئنا لنأكل أم لنتفرج على هذه المناظر التي لا توحي بشيء.

- أنا أحبك.

- أعرف ذلك.

- أريد أن أفعل معك الحب الآن.

- لا أشبع منك أبدًا.

- أعرف.

- أنت تشبهين أمك.

- كفى.

- وأنت مثل سردينة.

- أنت أحمق.

انفصلت عنه بغضب، ومشت فوق الشباك المنثورة فوق الرصيف. اقتربت من المراكب وجلست هناك. دلت رجليها نحو الماء. في حين كان يفكر هو فيما إذا كان أحمق.. مشى نحو السور العتيق، ووقف تحت الشمس يتأمل ويلمس بكفه مؤخرة المدفع. ولم يكن يشعر بأي شيء. ثم أخذ يصرخ: «سوسو...» ويبدو أنها حاولت ألا تسمعه.

9

حين نسمع صوت البحر

تنبعث الأرواح

مثل خمرة معتقة

تتفتح

ورودًا، ملحًا، صمتًا،

لا أدري.. غير أن البحر

يحتوينا

ونداء الأجداد،

يحتوينا.

والغراب الطريد

والجحيم السفلي الأبدي

وصدى الحروب

يحتوينا..

حين نسمع صوت البحر.. صوت الزمن

نعرف إذ ذاك أن العالم لنا.

وحين...

إلخ....

فوق شبه نهر صغير متصل بالبحر، تنتصب قنطرة من البازلت. وتطفو فوق شبه النهر الصغير قشور الليمون، والمعلبات... وأحيانًا فضلات آدمية، وأشياء سوداء مثل أحذية قديمة. وتنبعث من النهر الصغير رائحة نتنة هي خلاصة جميع النفايات التي تطفو فوق الماء، أو تتكوم في القاع. وعلى حافة النهر الصغير، صفت مقاعد خشبية، وأمامها طاولات في حجمها وفي لونها. ووراء كل مقعد مجامر فحم، وسطل وسردين مكوم وخبز بلدي. كان الناس يتعاقبون على المقاعد الطويلة يلتهمون السردين المشوي،

ورائحة الليمون. إن المنظر شاعري وأليف. وهناك من يأكل بفعل العادة، وهناك من يأكل بفعل الفقر. أما سليمان فأراد أن يأكل بفعل الاشتهاء في حين كانت سوسو ترفض ذلك كله. لا عادة ولا فقر ولا اشتهاء. مشى سليمان فوق الشباك، ونظر إليه العمال ولم يقولوا شيئًا. مشى نحو سوسو وكانت هذه الأخيرة تتمشى الآن عند امتداد الرصيف قرب مكتب الجمارك. ولم تحس إلا وهو يمسك بذراعها. استحلت ذلك. وسمعته يقول:

- هل غضبت إلى هذا الحد؟

- لا.. أنا لا أغضب أبدًا.

- انظري المراكب كم هي جميلة.

- ...

- البحر أزرق، والسور يمتد من النهر الصغير إلى مكتب الجمارك.

- ...

- عندما لا يشعر الإنسان بالشعر يجري في دمه يكون حمارًا.

- تكلم بالفرنسية. أنت تعرف أني لا أفهم العربية الكلاسيكية.

- طيب، عزيزتي.. تعالي نأكل السردين. وبعد ذلك نلتحق بالكافي - هيبيز. نشرب الشاي وندخن الكيف، ونستمع للموسيقى.

- إني لا أحب ناس هذه المدينة. إنهم يغتابون بعضهم كثيرًا.

ولم يكن رأي سليمان فيهم كذلك. بل كان له رأي آخر. قال الإسكافي لسليمان: إن شباب هذه المدينة لا يفتخرون بالانتساب إليها. إنهم لا يرضون بأن يُقال عنهم إنهم قوادون. اسمع أيها الصديق، إن جميع الشباب هنا يرون أمهاتهم ينـ(...)ن وكذلك أخواتهم. يُقال إن هذا الداء، داء الزنا، أُخذ عن اليهوديات. أنت تعرف، إذا قرأت تاريخ هذه المدينة، أنها كانت عاصمة لليهود في القرن التاسع عشر.

وقال سليمان:

- لم أقرأ عنها شيئًا للأسف. ولكن الخبر المثير الذي قرأته هذه الأيام هو هجوم قطيع من الخنازير البرية على سكان ضيعة في أولاد تايمة، فتركهم بين قتيل وجريح.

قال الإسكافي:

- يا للفظاعة! وهكذا فداء الزنا منتشر هنا بكثرة. وهو فظيع وأشد إثارة من هذا الخبر الذي ذكرت. ورحم الله

المجذوب موماد الذي لم يكن يهتم بأحد إطلاقًا. كان يتعرى في الشارع أمام الملأ ولا يكلم أحدًا.

وقالت سوسو:

- على أنهم يغتابون بعضهم البعض. إني لا أحتمل هذه الرياح التي تأتي من جهة الجزيرة.

- نأكل سردينًا بسرعة. ونعود لندفأ في الكافي - هيبيز.

مشيا نحو الباعة المصطفين بالقرب من النهر الصغير النتن. لم يجلسا، بل ظلا واقفين خلف الناس الجالسين على المقاعد أو على الأرض. وعندما وصل دور سليمان دفع بعض الأطفال الذين ينظرون بشراهة إلى الآكلين. ناول سردينة لسوسو فرفضت في تأفف. وقالت إنها لا تحب ذلك. إن السردين جميل فلماذا يأكله الناس. واقترحت أن يمتلك كل واحد من الناس (أوكواريوم) في بيته.

أطلّت الأميرة من الشرفة ورأت المتظاهرين يصرخون. وقالت لخادمها:

- ماذا يريد هؤلاء الرعاع؟

- إنهم يطالبون بالخبز يا سيدتي.

- إذا لم يجدوا خبزًا فما عليهم إلا أن يطعموا من الكعك.

- أنت حمقاء. لو لم أكن أحب جسدك لصفعتك.

- لماذا عزيزي؟

- هل تعتقدين أن الناس هنا لم يبق لهم همّ سوى امتلاك أكواريوم في بيوتهم؟

- اسمح لي يا عزيزي.

10

هل هذا هو الهدوء الذي كان يبحث عنه سليمان حقًا؟

هل هذه المدينة الصغيرة تستطيع أن تكون نموذجًا لمدينة المستقبل؟

نموذجًا لمدينة صغيرة هادئة يستطيع الإنسان فيها أن يعطي نفسه كليةً للتأمل والسكينة. والحب غير المبتذل؟...

هذه هي الأسئلة التي يطرحها سليمان الآن على نفسه. أسئلة تتكرر وتتعدد ولكنها واحدة. كان يود أن ينفرد بثريا هنا، وخالته تقوم بشؤون البيت. يتناقشان ويتأملان، ويفعلان ذلك الشيء غير العادي بينهما: الحب. لكنها لم ترد على رسائله

طيلة هذه الأيام. وأخذ يتخيلها في حالات انفعال مختلفة. ثم ضمها إليه. وكانت مثل عصفور صغير بين ذراعيه، يحتمي من الخطر. ثم أرهقه الضوء المتسرب من النافذة المفتوحة على باحة بيت مغربي ومدّ يده وحرّك الستارة الملونة قليلًا. وقالت خالته وهي تطل بنصفها الأعلى من الباب:

- متى يأتي صديقك كريمو؟

- ربما هو الذي يضرب على الباب الآن.

- إني لا أسمع شيئًا.

- اذهبي وشوفي.

اختفت الخالة وذهبت لتشوف. أما سليمان فقد جذب الستارة مرة ثانية. وأخذ يحرك قدميه في الهواء، ويصدر صوتًا شبيهًا بصوت محرك سيارة. وكان يشعر أنه سعيد أثناء قيامه بتلك الحركات. ما أروع أن يفعل المرء ما يشاء دون أن يأمره أحد بالتخلي عما يفعل. لكن خالته وهي تطل مرة ثانية بنصفها الأعلى، وقد تدلى شعرها الأسود فغطى وجهها المتورد، قالت له:

- هل أنت طفل؟ ليس صديقك كريمو هو الذي يخبط على الباب.

استمر سليمان في تحريك قدميه في الهواء، وإصدار ذلك الصوت بدون حرج، ودون أن يهتم لخالته. وظلت تنظر إليه. كانت النظرة غير واضحة لأن الشعر غطى عينيها. انسحبت في الأخير، وذهبت تدور على نفسها في باحة البيت. أما هو فكفّ عما كان يفعل. وأخذ ينظر إلى السقف. ثم أغمض عينيه وفتحهما. ورأى شيئًا أمام عينيه اختفى بسرعة. وقال: «عجبًا! ذلك هو الله». ثم أضاف: «من يدري! ربما كان الشيطان أيضًا». ثم قال صوت مرتفع: «ما أشدّ حمق هذا الإنسان!» وسمع هذه المرة طرقات حقيقية في الخارج. ودون أن يقول ذلك لخالته، سمعها تتحدث إلى شخص، في باحة البيت. واستطاع أن يعرف عندما ميّز صوته أنه كريمو. وأدخلته الخالة وهي تقول:

- الشاي أم القهوة؟

قال سليمان:

- لا هذا ولا تلك. إنه يحب البيرة.

قالت الخالة:

- مع الأسف يا وليدي. البيرة لا تباع في هذا الحي.

وقال كريمو:

- إن سليمان يا خالة يتكلم كثيرًا. لا تؤاخذيه. أريد شايًا.

انصرفت الخالة لتعد الشاي. وقال سليمان لكريمو عن الخالة حليمة:

- إنها دائمًا تود أن تراك. كل النساء يردن أن يرينك وأنت لا تريد أن تراهن.

قال كريمو:

- أنت تعرفني جيدًا. ولا أحب ذلك.

- المهم أن الخالة تريد أن تراك.

- ألا تعتقد أنها رأتني الآن؟

- ذلك ليس من شأني. ولكنها اليوم تريد أن تراك.

دخلت الخالة حليمة، وهي تحمل صينية عليها إبريق وثلاث كؤوس. كانت تبدو من خلال حركاتها أن عمرها نقص عشرين سنة. لم تعد في الأربعين ولكن في العشرين. وأرادت أن تقلد فتاة العشرين في حديثها. لكنها أصبحت مثل الغراب الذي أراد أن يقلد الحمامة في مشيتها، ففقد مشيته الأصلية. ولم يقلّد الحمامة إطلاقًا. وهكذا بذلت الخالة جهدًا كبيرًا لتستعيد نبرة صوتها الأول. وقال لها سليمان:

- ابذلي مجهودًا أكبر.

- إني لا أعرف عمّا تتحدث.

- ولكن كريمو يعرف.

- إنه شاب ذكي و...

وقال سليمان لكريمو:

- ألا تسمع ما تقوله الخالة حليمة عنك؟

قال كريمو:

- أسمع ذلك. إنها امرأة طيبة. ما أخبار صديقتك ثريا؟

- اسأل الخالة حليمة.

وقالت الخالة:

- بل اسأل سليمان. لا شك في أنها لم تعد تحبه.

وتظاهر سليمان بالغضب. وقرر أن يترك كريمو مع الخالة عقابًا له، ويذهب ليبحث عن سوسو. وعندما أصبح قرب الشاليه، كان الشاطئ شبه خال. قرر أن يمضي على طول الشاطئ فوق الرمال، وأن يتمتع برؤية البحر. ثم بعد وقت قصير التحقت به سوسو. تعانقا ومشيا نحو الأشجار الكثيفة قرب دار السلطان المهدومة. وحدثها عن المجذوب موماد لكنها لم تعرفه. إنه رجل التاريخ الحقيقي. وقال لها:

- كريمو.

- ما له؟

- إنه مع خالتي حليمة. ما الذي يمكنك أن تتصوري حدوثه بين رجل وامرأة في خلوة؟

- أشياء كثيرة.

- مثلًا؟

- الحب.

- هذا شيء عادي. أشياء أخرى غير الحب.

- يتحدثان عن الناس والعالم.

- خالتي لا تتقن الحديث عن الناس والعالم.

- لا شك أنها مثل ماما.

انفصلت سوسو عنه. وجرت فوق الرمل الذي كان يتطاير خلفها. لم يكن سليمان يهتم بها عندما ابتعدت. بل كان يسير بهدوء متأملًا زرقة البحر. وقال لثريا:

- اشربي قهوتك إنها تبرد.

- لا أحب القهوة كثيرًا. إنها تثير أعصابي.

- قولي لي أي شيء إذن.

- أحبك. ولا أظن أننا سنفترق ذات يوم.

وقال لها وهو يتمشى الآن وسوسو أمامه:

- غير ممكن. سأظل أحبك دائمًا.

ثم ضمّها إليه. وأخذا يمشيان متعانقين على حافة الأمواج المتلاشية والزبد يدغدغ أقدامهما. ثم ضربته سوسو بكمشة ماء. وصاح منتفضًا:

- اخجلي يا ثريا.

قالت سوسو:

- أنا لست تلك المومس ثريا. أنا سوسو. سأبكي إذا لم تناديني باسمي.

اعتذر لها سليمان. تعانقا من جديد. مشيا بعيدًا في مكان خال والبحر يهدر من حولهما. عندما تعبا جلسا على الرمل. أعاد سليمان سؤاله:

- ما الذي يمكنك أن تتصوري حدوثه بين رجل وامرأة في خلوة؟

- الحب مثلًا؟

- مثلًا.

- شيء آخر غير هذا.

- سوف أسأل ماما.

- هل تعرفين أن خالتي تبلغ الأربعين.

- لا أعرف.

- هل تعرفين أن أمك جميلة؟

- لا أدري.

- وأن أباك مصاب بالعجز الجنسي.

وقفت سوسو وابتعدت عنه. أخذت تلقي بثيابها على الرمل في جنون. كان سليمان ينظر إليها في تأمل. فتنة حقًا. جرت نحو الماء وأخذت تغطس تحت الأمواج وتتلهى برفع قدميها فوق سطح الماء. بدأ سليمان يلقي بثيابه. وتبعها إلى الماء. حاولت أن تفر منه لكنه أدركها. وقال لها:

- ما الذي يمكنك أن تتصوري.. إلخ.

هربت سوسو منه.. جرت بين شجر كثيف متشابك فوق مرتفع رملي. لم يتمالك سليمان نفسه. جرى نحوها والتصقا وسط الدغل. صارا جسدًا واحدًا. أخذت الريح تذري فوقهما الرمال. لم يكونا يشعران بشيء سوى أنهما جسد واحد. لم يكونا يتحدثان بل كانا يلهثان.

وكان البحر إذ ذاك يتسع ويتسع.. يزرقّ، يحمرّ، يخضرّ. يتلوّن والرمال تمتد مثل صحراء في الجنوب. رمال البحر أصبحت صحراء. كانا يريان نخيلات قصيرة منتوفة ومتفرقة. وأحيانًا نخلًا طويلًا جدًا، سامقًا مثل نخيل أسطوري.. كانا يلهثان. بحيرات السراب تمتد على مدى البصر. والقوافل الكثيرة لا تكاد تُرى قادمة من كل مكان. وكان الرجال الزرق من قبائل عريبات يركضون فوق الجمال ويديرون البنادق في الهواء. تلك لعبتهم المفضلة. وأخذ كل شيء – كل الصور – يتلاشى في ماء البحر. ولم يعد هناك شيء. وكان سليمان قد ارتخى الآن على ظهره. ذراعاه مرميتان إلى جانبه. وكانت حواء من حوله تغطيها حبات الرمل التي تذروها ريح خفيفة. ارتدى المايوه من جديد. وقف بسرعة وجرى نحو الماء. كانت حواء تنظر إليه بعينين متعبتين. وقد اندسّ شعرها في الرمل. وخلف ظهرها كانت ظلال الشجر الكثيف تنسحب إلى الخلف. ولم تكن ترى بوضوح سليمان. بل كان أمامها آدم عملاقًا. ذا عضلات، يدخل في الماء. يضرب الأمواج بذراعيه القويتين. يغطس. وحوله صور لأشخاص غرباء صغار الأجسام يفعلون مثله. ثم أخذت الصور تتبدل. تتغير. تتلاشى. وذهبت سوسو في نوم عميق.

انتهت يوم 13/ 12/ 1974

البحر الأفعى



محمد رزوق



"جلست بالقرب منهما على الرمل الحار. وفهم الاثنان أن الجو جميل جداً. و أن الرائحة المنبعثة من المكان تعطره. و ناول سليمان السيجارة لسوسو. و قال لها إذا انتهت عليها أن تعيدها له. لكن سوسو لم تفعل. بل وجدت الفتاة ذات وجه بريء.. وهي بعيدة كل البُعد عن أن تكون سحاقية."

مكتبة الأدب المغربي

الغلاف حسين جميل



